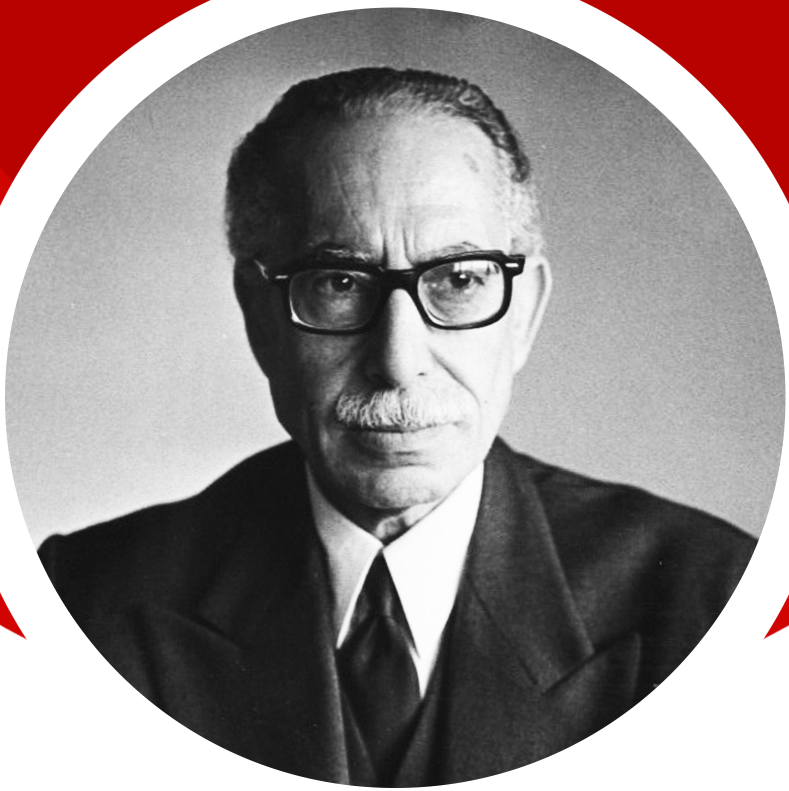

مع الزمن

توفيق الحكيم

مع الزمن

تأليف
توفيق الحكيم

هنـــداوي

مع الزمن

توفيق الحكيم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ونسدور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٥ ٣٩٠٩ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٣.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٦.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ توفيق الحكيم.

المحتويات

مقدمة الطبعة الثانية	٧
مقدمة الطبعة الأولى	٩
رحلة الربيع	١٣
رحلة صيد	٢٥
رحلة قطار	٤٥

مقدمة الطبعة الثانية

خطر لي في هذه الطبعة الثانية أن أضع عناوين لهذه المقطوعات المكتوبة في العشرينيات، كما يضع المصور عنوانًا لصورة سبق أن انطلقت حرة من وجدانه. والواقع أن هذه المقطوعات لم تكن سوى ظلال أفكار ومشاعر تجلَّت لي عن طريق الصور المتشابكة في تكويناتٍ، كتلك التي تتجلَّى للمصور التشكيلي؛ فلقد كنت يومئذٍ تحت تأثير مدارس التصوير الثائرة؛ لذلك لست أدري إلى أيِّ مذهب شعري بالضبط يمكن أن ينتمي هذا النوع.

لقد كنت في «شهر زاد» أُعلن أني متأثر بالرمزيين، وعلى رأسهم «ماترلنك»، ولكن أكثر النُّقاد لم يرَ ذلك؛ فمنهم من قال إنه لا يستطيع أن ينسبها إلى وصف كما كتب روبير كيمب في جريدة الموند، ومنهم من وصفها بأنها وَشْيٌ فنيٌّ عربي كما ذكر جورج ليكونت عضو الأكاديمية الفرنسية في مقدمته لها، ومنهم من تحدث عن الأسطورة وغموض الشرق كما كتب ريتشارد بنيت ومحرر التايمز ... إلخ.

ولقد أدهشني ذلك، ولم أجد تفسيرًا له سوى أن يكون الناقد المتمكِّن بعيدًا عن الوقوع في فخاخ التشابه الظاهري.

إذن فأنا هنا بالطبع لن أستطيع تحديد موضع هذه المقطوعات من الشعر عامةً، ومن شعرنا الحديث خاصةً.

وحسبي أن أقول إنها نبعت من نفسي هكذا في وقت من أوقات العمر.

ت. ا.

١٩٦٨

مقدمة الطبعة الأولى

في مقدمة «يا طالع الشجرة» كتبت أقول:

يا طالع الشجرة
هات لي معك بقرة
تحلب وتسقيني
بالمعلقة الصيني ... إلخ.

«هل لهذا الكلام معنًى؟ ما هو المعنى الذي يمكن أن يكون له؟ ومع ذلك فإن أجيالًا من الأطفال والصبية قد ردَّدوه، وما زالوا يُردِّدونه في بلادنا.»

ثم قلت: «هنا المنفذ الذي انفتح على عالم عجيب جديد هو الفن الحديث؛ فقد اتجه هذا الفن الحديث إلى تعميق هذا الشيء الخفي، وكانت وسيلته التجرد أولًا من المعنى والمنطق، فأصبح التصوير مجرد بُقَع لونية، والنحت بُقَع كتلية، والموسيقى بُقَع صوتية، والشعر بُقَع لفظية (كلمة البُقَع هنا تعبير خاص عن انطباعي الشخصي). ونتج عن ذلك نوعٌ من الفن يتصل مباشرةً بالعين أو بالأذن دون أن يمر بالعقل.»

ثم قلتُ: «ولقد أغراني هذا الفن الجديد في السنوات العشرين من هذا القرن — وأنا في باريس — بالشروع في المحاولة، فكتبت بضع قصائد شعرية نثرية من هذا النوع، وهو لا يتقيَّد أيضًا بنَظمٍ ولا بقالب معروف، أهملتُها فيما بعد بالطبع ... لأن اتجاهي الأصلي كان إلى المسرح.»

هذا نص ما نشرتُه في تلك المقدمة.

ولقد أشرتُ إلى تلك المحاولات أيضًا في كتابي «زهرة العمر».

واليوم — وأنا أجمع في كتابٍ «رحلة صيد» و«رحلة قطار» المكتوبتَين في الستينيات — خطر لي أن أعود إلى الرحلة الأولى ... إلى محاولات العشرينيات في هذا المجال ... وطبيعيٌّ ونحن في صدد رحلة خريف أن تخطر ببالنا رحلة ربيع.

إني لأذكر الآن من حيث «الشكل» كيف كان القرآن يُثير فينا التأمُّل بأسلوبه الفريد، لا هو بالشعر المنظوم، ولا هو بالنثر المرسل، لكنه طاقة شعرية وموسيقية معجزة:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾
﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾
﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾
﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾
﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

ثم ...

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾
﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾
﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾
﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾
﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾

ثم ...

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾
﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾
﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾
﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾
﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾

ثم ...

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾

﴿إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾
﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾
﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾

ثم …

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾
﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾
﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾
﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾
﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾
﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾

هذا الإعجاب ترك في نفوسنا أشياء … وربما، بدون أن نشعر، كانت تعيش دائمًا في أعماقنا ذكرياتُ هذا «الشكل» الفني الفريد.

على أن دراسات أوائل القرن، وأبحاثه في مجاهل النفس، والعقل الواعي وغير الواعي، وانعكاسات ذلك كله على الفن، قد ألقى بنا في آبار سحيقة … فجعلنا نُلقي على الورق بتلك الصور الشبيهة أحيانًا بالأحراش الكثيفة السوداء. من تلك الأعمال التي مزقت أكثرها، لم أعثر إلا على هذا القدر من مقطوعات؛ بعضها مكتوب في الأصل على النسق النثري المتصل الجمل والفقرات، وبعضها — وهو المنشور هنا — لا يحمل عناوين. ولم أعد أذكر لماذا لم توضع لهذا البعض عناوين؟ لعله ذلك اللون أيضًا، كان يرفض أحيانًا أن يمسك بإصبع القارئ ليضعها على مفهوم محدَّد بعنوان … كأنه الطبيعة الغامضة المبرقعة بالصفاء — أو خدعة الصفاء — كما قلتُ وقتئذٍ أيضًا في «شهرزاد» … هذه الطبيعة الصامتة التي تُلقي تحت أعيننا بالكائنات دون أن تضع لنا فوقها العناوين واللافتات.

وبعد:

فمهما يَكُن من أمر، فإن المهم هنا الآن إنما هو مجرد وصل حلقتَين، تفصل بينهما أعوام طوال، لنعرف إلى أيِّ حد تختبئ البذرة فينا وتنام، ثم تصحو وتظهر في أعمال وأشكال مختلفة على مدى العمر ومراحل الفكر.

ت. ا.
١٩٦٤

رحلة الربيع

١٩٢٦–١٩٢٧م

قبة سمائنا

غطاء محكم الإغلاق
أزرق زرقة الأبد
زرقة ضمير طفل في المهد
أُغلِق غلقًا على جوهره
تلمع داخلها جمجمة
تحسب أنها وحيدة
تقول كلامًا وتعيش غرامًا
وتنام طويلًا بعيون غير موجودة.

حلمنا وواقعنا

مخمور يطرق باب الحان
ويخرج يهذي بالألحان
يسرق حُليَّ زوجته
ويهديها لعشيقته
ويسرق حليَّ عشيقته
ويهديها لزوجته

مَن تكون زوجته؟
مَن تكون عشيقته؟

* * *

وجهان يصطرعان في جوف الظلام
لَحنان يختلطان من دون كلام
ويرنُّ صوت الصمت في كأس الزمان
ويسيل وهمًا من دنان الحان.

محاولة قُبلة

عملة صفراء من ذهب ذهبت
في مثل برقة العين هَوَت
وعلى رخام الأرض الأحمر تدحرجت
بصوت حلو الرنين
وفي ثقب اختفت
قالت الخادم الوقحة بابتسامة صفراء:
لا أمل! ... دعني أمسح الرخام
ثم جعلت تطلي بالأحمر شفتَيها.

هواجس ليلة بيضاء

تنفَّس صبح من أنوف خيول
تركض لاهثة في وهاد نفسي
أسمع في أعماقي الصهيل
امنعوها من اللحاق بأمسي.

* * *

إنها في غيوم تَمرُق
تتساقط من سنابكها شُهُبٌ تَبرُق
وتغرق في عيون سود

غريبة النظرات، لنساء عاريات
يسعَلن ويضحكن في سوق النهود.

مسافر في الفضاء

أيُّتها الأذن اسمعي ... اسمعي هناك
ما هذا السكون الجاثم كالحيوان النائم؟
حيوان ميت لا تصعد من أنفه أنفاس
إنه النعاس ... كل شيء في نعاس
أين ذهبت العصافير من عشِّنا؟
ولكني واثق ... واثق أن بيتي هناك.
* * *
أيَّتها الأذن اسمعي ... اسمعي هناك
أما من كلام أما من صخب!
حتى الهمس ووقع اللمس قد ذهب
ما من صوت غير صوتي أنا من هنا
أين حديثنا وضحكنا وغناؤنا؟
ولكني واثق ... واثق أن بيتي هناك.
* * *
أيَّتها العين انظري ... انظري هناك
ما هذا الشيء الداكن تحت رموشك؟
أهي أرض؟ أهو ماء؟ أهي سماء؟
كل شيء مطحون طحنًا ... معجون عجنًا
في تلك الكتلة الغامضة السوداء
ولكني واثق ... واثق أن بيتي هناك.
* * *
أيَّتها العين انظري ... انظري هناك
ما هذا الموج الأبيض تحت رموشك؟
أهو قُطن مندوف؟ أهي فروة خروف؟

ما بال كل شيء هكذا قد أُريق؟
كأنه لبن صُبَّ من غير إبريق
ولكني واثق ... واثق أن بيتي هناك.

أعماق نفسي

ما أشدَّ بريق الإبريق الفضي!
يلمع كالفجر في يد ساقٍ زنجي
اقترب الساقي الزنجي وعيناه في عيني
شعاع كالسيف اخترق الصمت وقال:
إذا قدَّم الشراب إليك ساقٍ أبيض
سالت الحقيقة في جوف الكفن.

* * *

وإذا قدَّم الشراب إليك ساقٍ أسود
بزغت كالنجم من خلف الغمام
وأشار الأسود إليَّ بالإبهام:
انظر في جوف الكأس تعرفها
ونظرت في الأعماق أرجو باحثًا
إنها عيني أنا ترنو إليَّ.

لست وحدي في الكون

أسمع أصواتًا ولست أرى
أسمع موسيقى الضياء ولا أرى
حناجر جوقة تشدو ولا تدري
بأيِّ رحيق ريقها يجري؟
مَن الذي وضع الألحان في فمها؟
وكلها تتلاقى عندي في انسجام

إن لم تكن الخليقة شعرًا فماذا تكون؟
إن لم نكن نحن كلمات شعر فمن نكون؟
من الذي بنا يترنَّم
من فم واحد متعدِّد الأنغام؟

نسيج الخليقة

عروق ذهب في جبل جبل يسير على قَدم
قَدم تطير على عجَل عجَل يُمزِّق في رخام
رخام جوٌّ من غيوم غيوم حقل من نجوم
نجوم جسمٍ من عيون عيون جسمٍ من نجوم

* * *

نجوم جوٌّ من سكون سكون أصداف بحار
بحار كأسٍ من وَرَق وَرَق يفور ويحترق
ويحترق ثم يعود يعود يجري كجواد
جواد حلبةٍ تضيء تضيء من جوف عيون

* * *

عيون وَحشٍ في فضاء فضاء رأسٍ ثَمِل
ثَمِل بكروم جبل جبل عروقه ذهب
ذهب يَشِعُّ في هواء هواء يَلِد هواء
هواء يتغذَّى بهواء هواء من نسل هواء

كلام النجوم

الكون أسود ... الكون أسود
والنجوم تتناجى بالبريق
ليزول خوفها وتصمُد
في بحر التيه العميق
بحر المداد

تسبح فيه الطيور البيض
قبل أن تهوِي في السواد.

كلامنا نحن

الكون أبيض ... الكون أبيض
لآلئ في كئوسٍ تضيء الرءوس
أسراب السحب وأسراب البجع
وثوب عروس
والليل مصبوغٌ بفَجرٍ مذاب
وميِّتٌ يعطس في الكفن
وصوتٌ يقول: أين المآب؟
وريحٌ تنفخ في الشراع
ليسبَح سبحًا في بحار النهار.

الحب

زهر البنفسج انتثر
وفوق جدار الأبد تدلَّى وانتشر
لونٌ وأريجٌ وربيع
صُبَّ على الكون صبًّا من آنيتها
أنهارٌ بنفسجيةٌ تتصاعد من نافذتها
تَفيض على بِطاح الأرض ووديان القمر
كل شيءٍ في ربيع غرق
وعندما أغلقت نافذتها
كان قلبي قد احترق.

البدر

عينٌ ذهبيةٌ تُطِلُّ علينا
من بُرقعٍ مثقوب

هكذا يقولون ولكنِّي أقول:
هي سِنٌّ ذهبيةٌ لآلهةٍ لعوب
تضحك لنا بملء الفم
فيُصفِّق لها النبت في الحقول
ويزول من الصدور الغم
ولكنها تذهب
ولا يبقى منها إلا حاجبٌ يلعب
إلى أن ينام في الظلام.

مِزاجنا

دميةٌ من خشب
ثيابها دِمَقس
ضفائرها أشعة شمس
أهدابها مطر
تَغمُض وتفتح
فتغضب الشمس وتفرح
دميةٌ خشبية
حياتها أبدية
لأن ما تصنع
أن تَغمُض وتفتح.

اللامتناهي في المتناهي

هبطتُ بعيني في أعماق فنجاني
فرأيتُ الكون يُخلَق من جديد
هذا النقيع في القاع له غبار
يَهِيم طليقًا في فضاءٍ مديد
أَدرتُ فيه الملعقة

وإذا بدوَّامةٍ تدور ثم تدور
وتجمَّع الغبار
في كتلةٍ دائرةٍ معلَّقة
وبدا في الأفق نجمٌ وليد.

دخان أفكار

تماسيح تسيح
بمَتاعٍ وحقائبَ من جلد التماسيح
تَخطِر في ثيابها الزَّرَد
وتذرف دموعًا من بَرَد
وتتمدَّد تتدفَّأ فوق عشب السحب.

* * *

هلمُّوا يا صِحاب فقد حان المساء
والليلة ليلة عرسها
فلنرقص ولنشرب
فوق شفاه بركان
يدخِّن القُنَّب.

شكوى

إذا كنتِ عصفورًا
فإني دودة
منقارِكِ يشدو بغناء
أصوغه من أحشائك
تبحثين في الطين عنِّي
لكنِّي أغنِّي
أغنِّي وأنا في فمك
وأنت لا تسمعين
لا تسمعين غير غنائك.

أيَّتها الحياة التي فينا

صهيل خيل
وصليل سيوف
وقصف رعدٍ في السماء
وخرير ماء
وتلاطُم أمواجٍ على صخور
وزئير أُسود

* * *

وتحطُّم بلَّور على بلاط قصور
وشَدْو بلابل في السَّحَر
ونَعِيق بُوم
ودبيب نِمَالٍ على جذوع كروم
كلُّ هذا لك أنت
قطعة لحم علامة استفهام.

نشوة

رفعت كأسي إلى فمي
وقد انطلق في الكأس الحَباب
رشفتُ منها رشفةً
ثم وقفتُ فجأةً
لقد ابتلعتُ كوكبًا
وعندما ارتدَتِ الكأس الضَّباب
وغطَّت رأسها الثلوج
بزغ الإشراق في قلبي
وصاح الديك بفجرٍ جديد.

أين المصير؟

أربع أقدام
ثم اثنتان ثم ثلاث
تدُبُّ على رمال الزمن
لغز أبي الهول الخالد
تسير عطشى كالإبل
طول الطريق

* * *

وصفير الريح يأتي كالأنين
مؤذِنًا بالأجل
تِسعُ أقدام كالعجَل
تجري تحمل السنين
كأنها رمالٌ في رياح
إلى الطريق.

تجدد الكون

السماء تتثاءب في كلِّ حين
من سأم الخلود
تلهو بفمها العريض
وتنفث فقَّاعات صابون
تتألَّق بالألوان والأضواء
ثم تتركها تنفجر وتفرقع في الفضاء.

* * *

ويعود الفم العريض
من سأم الخلود
إلى شغل الفراغ
يعود ثم يعود ثم يعود
إلى لهو الأطفال الأبرياء.

صلاة الفنان

إطار صورة مُلوَّنة
يُسمُّونه نافذة
والرسم حيٌّ يتحرَّك في الفضاء
أشجارٌ كأشباح البشر
وسنابلُ من الناس تموج
ونجمٌ يلمع في السماء كقطرة ماء
والبحر أزرق كالصور.

* * *

والشمس تلعب عند الشَّفق
بصندوقِ ألوانها في الأفق
والفنُّ ينبض وحده بلا فنَّان
والقلب يهتف من أعماقه بصلاة
بصلاةٍ يُسمُّونها دهشةً.

رحلة صيد

(مسرحية في فصل واحد)

(أدغال ... أمام تلك الأدغال رجل في ملابس الصيد ... قد انبطح على الأرض ... وعلى بُعدٍ منه بندقيةٌ مُلقاةٌ فوق التراب ... يتحرَّك الرجل ببطءٍ، ثم يجلس مُتكوِّرًا بجسمه، ثم يأخذ في تحسُّس أعضائه عضوًا عضوًا ... بينما صوتٌ خافتٌ لزئير أسدٍ يُسمَع عن قُرب ... ويَخفُت الزئير ويشتد، ثم يَخفُت ويشتد بين وقتٍ وآخَر، والرجل طوال الوقت لا يبدو عليه أنه سمع أو يسمع شيئًا منه، أو ممَّا حوله على الإطلاق.)

الرجل: يا للعجب! إني شِبه مُخدَّر ... ما الذي يمكن أن يُخدِّرني هكذا؟! ... هذا الخمود ... الخمول ... الضعف ... التخدير ... التخديل ... التنميل ... أظنُّ أني لا أستطيع أن أُحرِّك ذراعي ... وربما كان كلُّ هذا وهمًا ... وإني فعلًا أحرِّكه الآن ... (الرجل بلا حراك دائمًا) والبندقية ... هل ما زلتُ أحملها في يدي ... طبعًا أحملها ... ولكنِّي لا أشعر بشيء ... ومع ذلك لم أُدخِّن الأفيون ... مطلقًا ... ولا الدخان ... منذ أول سيجارة ... في المشرحة ... كلية الطب ... قيل لي إن ذلك ضروري ... للرائحة ... لكن ما هذه الرائحة؟ ... رائحةٌ كريهةٌ بقُربي ... تملأ خياشيمي. وهذه الأنفاس الحارَّة ... الملتهبة تلفح وجهي ... لم يَعُد في إمكاني أن أُميِّز ... أن أُميِّز شيئًا على الإطلاق ... أين أنا؟ في أيِّ مكان؟ ... في أيِّ وقت؟ ... لم أَعُد أشعر ... كل شيء مشوَّش ... ما هذا الشيء الذي تحت يدي الآن؟ ...

جسمي؟ ... جسمي أنا؟ ... لا، ليس أنا ... قطعًا ليس هذا أنا! ... هذا شيء طري رخو ... قطعة لحم ... هذا الشيء المُتكوِّر ليس إلا قطعة لحم كبيرة هشَّة ... مستقلَّة عني تمامًا ... إذن أين أنا؟ ... مَن أنا؟ ... أين أكون؟ ... أين أكون الآن؟

زئير الأسد الخافت

الرجل (لم يسمع شيئًا ولكنَّه ينظر أمامه في الفضاء مُحمْلِقًا)**:** عجبًا ... لم أعُد أُبصِر شيئًا أمامي ... لم يَعُد هناك شيء محدَّد أمام عيني، لكن ... ها هي ذي أشكال غامضة بدأت تظهر ... بدأت تتَّضح ... إنها مجرَّد أشكالٍ غريبةٍ متداخلةٍ تداخلًا غير محدَّد ... غير واضحٍ تمامًا ... الآن بدأت في الوضوح ... إنها الآن تتَّخذ شكلًا ... نعم، اتخذت شكلًا يمكن تبيُّنه ... إنه شيءٌ كالوجه ... بل هو وجه إنسان ... نعم، هذا وجه إنسان قطعًا، لكن ... لَمَن؟ ... يبدو أنه لامرأة ... حقًّا هو وجه امرأة ... مَن تكون؟ ... يُخيَّل إليَّ أني أعرف هذا الوجه ... نعم، أعرفه ... عرفته ... عرفتها ... عرفتُكِ ... نعم، تذكرتُكِ ... أنت المريضة الشابَّة الجميلة ... على فراش موتك ... في مستشفى القصر العيني ... حالة خطرة ... سُلٌّ متأخِّر.

الوجه: وقبَّلتَني مع ذلك ... ويا لها من قُبلة!

الرجل: الأستاذ الإنجليزي رآني وأنا أُقبِّلك ... همس لزملائي الأطباء الشبَّان: إنه ينتحر!

الوجه: كانت إذن شفقةً منك!

الرجل: كان تحديًا!

الوجه: حبَّذا لو كان حبًّا!

الرجل: لم أرَ عينَين في جمال عينَيك وقتئذٍ! ... إن يد الموت أحيانًا تمسك بريشة فنان!

الوجه: ماذا كنتَ تتحدَّى؟!

الرجل (مُحدِّقًا في الوجه)**:** إنه يتغيَّر ... هذا الوجه الجميل يتغيَّر بسرعة ... كما تتغيَّر سحابة في السماء ... قد تغيَّر ... الأنف الدقيق يتضخَّم ... يتقوَّس ... انقلب إلى وجهٍ آخَر ... ما هذه النظَّارة السميكة فوق الأنف؟! ... وجه مَن هذا؟! ... لستُ أدري بعدُ لِمَن؟ ... لكن ها هو ذا يتَّضح ... نعم، نعم أعرف الآن ... هذه أنت رئيسة المُمرِّضات الإنجليزية ... هناك في مستشفى الإسكندرية.

الوجه: نعم ... ولن أغتفر لك أبدًا سخافة موقفك!

الرجل: قلتُ لك مرارًا لا تستعملي هذه الألفاظ في مخاطبتي! ... أنا مدير المستشفى!

الوجه: وهل كان من الضروري أن تُثيرها فضيحةً في كل المستشفى؟!

الرجل: كيف كنتِ تريدين أن أصمت وقد فاجأتُك بين أحضان ذلك التمورجي القذِر؟!

الوجه: وما شأنك أنت؟!

الرجل: أنا مدير المستشفى المسئول.

الوجه: مسئول عن عملك الرسمي فقط، لا عن تصرُّفاتي الشخصية ... أنا هنا الرئيسة ... رئيسة المُمرِّضات، وأنا إنجليزية ... ونحن في زمن حرب.

الرجل: كلُّ هذا لا يُبرِّر سلوكك!

الوجه: أرجوك، أرجوك!

الرجل: وجه مُقْرِف ... يُثير اشمئزازي! ... إنه يتغيَّر ... قد تغيَّر سريعًا ... هذا الأنف المُقوَّس أخذ يعتدل ... إنه يصير في حجم اللوزة ... واللون الأحمر الدموي ... ها هو يصبح خمريًّا لطيفًا ... اختفت النظارة السميكة ... والنظرات الجامدة ... النظرات الآن لطيفةٌ ضاحكةٌ غنِجَة ... وهذه السن الذهبية في جانب الفم ... تذكَّرتُ هذا الوجه ... عرفتُك، عرفتُك.

الوجه: حسبتُك نسيتني!

الرجل: وجهك لا يُنسَى بسهولة! ... كنت أنتظر مرورك بسلَّة اللوز عصرَ كل يومٍ على قهوة الأقصر بطنطا ... مثل غيري من المُوظَّفين والتجَّار والعُمَد والأعيان.

الوجه (مع دندنةٍ): يا منعنشة يا بتاعة اللوز ... بدِّي ألاعبك فرد وجوز.

الرجل: نعم ... كنت تُردِّدين ذلك بدلالٍ يَسبي العقول!

الوجه: وكنتَ أنت تخسر فلوسك معي دائمًا في الرهان!

الرجل: عن طيب خاطر!

الوجه: وغمرتَني بأفضالك ... طالما أرسلتُ إليك أقاربي من الريف تُعالِجهم لوجه الله.

الرجل: لوجهك أنت.

الوجه: كنت أنت ألطف إخوانك في الشلَّة.

الرجل: كنا شلَّة أطباء شُبَّان عُزَّاب ... يفتننا الجمال ... وكان جمال وجهك يؤنس وحشتنا!

الوجه: كنتُ حقًّا جميلة؟!

الرجل: فاتنة! وسنَّتُك الذهبية تضحك باستمرار ... كأنَّها شمس! رسخت صورتك في رأسي طويلًا ... حتى بعد أن تزوجتُ وصرتُ أبًا ... لا زال وجهك ... ولكن ... انتظري ... إنه يذهب ... يتغيَّر ... إنه يتغيَّر بسرعة ... ينقلب وجهًا آخر ... وجه مَن هذا؟! هذا وجه ابنتي سامية ... سامية بنتي.

الوجه: إنك يا بابا تقسو عليه.

الرجل: لأنه وغد ونذل ونصَّاب!

الوجه: أنت الذي اخترتَه لي زوجًا.

الرجل: غلطة! ... غلطة مني جسيمة.

الوجه: إنها على كل حالٍ نقودي أنا.

الرجل: طبعًا نقودك ... نقود جهازك ... لتُؤثِّثي بها بيتك ... لا ليسطو عليها هذا الشاب ويُبدِّدها.

الوجه: إنه لم يُبدِّدها ... إنه سيُنشِئ بها مشروعًا تجاريًّا مفيدًا.

الرجل: أتُصدِّقينه؟

الوجه: إنك تكرهه يا بابا.

الرجل: إني أحتقره ... هذا شاب طامعٌ في مالك!

الوجه: أنت تظلمه يا بابا ... إنه ليس كما تتصوَّره ... ولكنَّك تكرهه من يوم ...

الرجل: من يوم أن خالف نصائحي في أمر عمله ... هذا ما تريدين قوله ... ستقولين إنه حرٌّ في اختيار مستقبله ... ستقولين إني مستبدٌّ مُحِبٌّ للسيطرة ... أعرف اتهامك واتهامه لي ... أعرف رأيكما في شخصي ... كل هذا أعرفه ... وجهك يتغيَّر ... تغيَّر بالفعل ... تحوَّل إلى شيء آخر ... هذا شارب ... هذا وجه رجل ... مَن هذا الرجل؟ ... أعرف هذه الأذن المشرومة! ... هذا أنت أيها التمورجي؟!

الوجه: التمورجي الوسِخ كما سميتَني في ذلك اليوم الملعون!

الرجل: نعم ... وسِخ ... قذِر ... ألم تخجل من هذا العمل القذِر؟! تحتضن في المستشفى تلك العجوز المُخرِّفة!

الوجه: هي والله التي طلبت مني ذلك.

الرجل: وتُطاوِعها؟!

الوجه: وهل أستطيع مخالفتها؟! كلُّ الدكاترة تحت أمرها ... كلُّ المستشفى ...

الرجل: إلَّا أنا.

الوجه: سعادتك جامد كالحديد.

الرجل: هذا ما تقولونه عني كلكم.

الوجه: الويل لمن يرتكب غلطةً ولو بسيطة! ... سعادتك تجعله عبرةً لمن يعتبِر ... يكفي ما عاقبتَني به!

الرجل: بماذا عاقبتُك؟

الوجه: أصدرتَ أمرك أن يضعوا رأسي في المرحاض ويشدُّوا السيفون.

الرجل: تستحق!

الوجه: جعلتَني مَضحكةً ومَهزأةً في المستشفى كلِّه ... لم أشعر بمثل هذا الذل! ... لا يمكن أن يُذَلَّ إنسانٌ بمثل هذا الذل أبدًا!

الرجل: أتبكي؟!

الوجه: النفس عزيزة ... عزيزة على صاحبها!

صوت زئير الأسد الخافت

الرجل: لم أسمع أحدًا يبكي هكذا ... كُفَّ عن البكاء بهذا الصوت! ... لكن أين دموعك؟! أين عيناك؟! إنهما الآن عين واحدة ... عين واحدة سوداء ... ليس فيها غير سواد ... لم تَعُد عينًا ... إنها فقط نقطة سوداء ... مجرد نقطة ... بل هي الآن خالٌ ... خالٌ أسود ... نعم، نعم ... عرفتُ هذا الوجه ... وهذا الخال الأسود في أسفل الخد الأيمن ... تفيدة!

الوجه: نعم، تفيدة! ... لم يَبْقَ لي عيش في العيادة!

الرجل: قلتُ لك اصبري! ... اعقلي! ... كل الزوجات هكذا ... زوجات الدكاترة كلهن هكذا.

الوجه: لكن الست زوجتك تتعمَّد إهانتي!

الرجل: أنت عارفة السبب.

الوجه: لكن أنا مظلومة ... أنا لا ذنب لي في شيء.

الرجل: طبعًا.

الوجه: أنا تحملت أكثر من اللازم.

الرجل: استمرِّي في التحمُّل ... غضبها منك طبيعي ... إني أمضي معك هنا في العيادة وقتًا أطول مما أمضيه معها في البيت ... طبيعة العمل هكذا، ولكنها هي بالضرورة كزوجة لا تفهم ذلك.

الوجه: والحل؟

الرجل: لا يوجد حل ... إنها ضريبة عمل!

الوجه: الخطر في الموضوع أنها تظنُّ ظنونًا.

الرجل: كلام فارغ! ... استمرِّي في عملك.

الوجه: لكن ...

الرجل: كفاية كلام في هذا الموضوع! ... لا تجعليني أنا أيضًا أظنُّ ظنونًا.

الوجه: مثل ماذا؟

الرجل: مثل ... إنك أنت مثلًا التي تتعمَّدين إثارة شكوكها.

الوجه: وما مصلحتي؟!

الرجل: غريزة نسوية! ... قد لا تشعرين بها ... وربما أيضًا ...

الوجه: ماذا أيضًا؟

الرجل: لَفْت نظري.

الوجه: لَفْت نظرك؟

الرجل: نعم، لَفْت نظري إليك!

الوجه: أتظنُّني أتعمَّد ذلك؟

الرجل: ولِمَ لا؟ ... إني أحيانًا أراك ... مُغرِيَة!

الوجه: مُغرِيَة؟!

الرجل: هذا الخال الأسود في أسفل الخد الأيمن!

الوجه: لم تَقُل لي ذلك من قبل!

الرجل: ربما لم ... لم أَجسُر ... كتمتُ ... كبتُّ في نفسي ... انتظري ... انتظري ... اختفى الوجه ... الخال ... زال ... تحوَّل ... لكن ما هذا؟ ... هذا صُدْغ ... صُدْغ رجل ... دقَّ عليه بالوشم الأخضر عصفورة ... لستُ أذكر لِمَن هذا ... نعم، نعم ... تذكرت.

الوجه: أنا القرداتي.

الرجل: نعم ... تذكرتُك ... هناك في ميدان القلعة ... أنت وقردك!

الوجه: يومها سألتني كيف استطعت تعليم القرد ركوب «الزِّق» كأنه عَجَلة درَّاجة؟!

الرجل: حقًّا ... وذهبت بي إلى مدرسة القرود! ... تلك الخرابة المهجورة!

الوجه: ما الذي أغراك وأنت السيد المحترم أن تذهب إلى مثل ذلك المكان وترى تلك المناظر؟

الرجل: حب الاستطلاع.

الوجه: أكان المنظر يستحقُّ أن تدفع فيه نصف جنيه؟!

الرجل: وأكثر ... كان منظرًا ممتعًا ... معلومات لم أكن أعرفها ... لو كنتَ طلبت جنيهًا لدفعتُ ... اكتساب أيِّ معرفة جديدة شيء لا يُقَدَّر عندي بثمن!

الوجه: المهم عندي ثمن الأرنب والباقي مكسب!

الرجل: الأرنب المسكين ... إنه دائمًا الضحية ... أفهم أن يُضَحَّى به في المعامل من أجل العلم ... من أجل صحة الإنسان ... لكن يُضَحَّى به أيضًا من أجل تعليم القرود؟!

الوجه: وكيف كان يُمكِننا تعليم القرد؟!

الرجل: حقًّا ... كان منظرًا لا أنساه ... صرختَ أنت في القرد الغشيم يركب «الرِّق» ... لقَّنْتَه، فلما فشل جئت بالأرنب وصرخت فيه نفس الصرخة وأمرته نفس الأمر ... فلما لم يمتثل بالطبع، أخذته فذبحته تحت أنظار القرد المفزوع، وعندئذٍ صِحْتَ في القرد مرةً أخرى بالأمر، فأسرع في لمح البصر يركب الرِّق، ويجري به، وقد نُقِش الدرس في رأسه بدم الأرنب المذبوح!

الوجه: ماذا نصنع؟ أكل العيش ... تحايل من أجل المعايش!

الرجل: نعم، نعم ... لم أَعُد أُبصِر العصفورة ... طارت من فوق الصُّدْغ ... بل الصُّدْغ نفسه يتلاشى ... ما هذا؟ هذا شارب أعرفه ... طرفاه مدبَّبان إلى أعلى ... يقف عليهما الصقر ... هكذا كنتَ تقول، وزملاؤك في العمل يقولون.

الوجه: وهل راعيتَ كرامته يا سعادة المدير؟! إنك جعلت هذا الشارب ينزل إلى الحضيض.

الرجل: الذنب ذنبك ... أنت موظف غير أمين على العُهدة ... ألا تعرف أن أرانب التجارِب في المعمل عُهدة في ذمتك؟!

الوجه: طبعًا عُهدة.

الرجل: كيف إذن تذهب كل يوم بأرنب إلى بيتك تذبحه وتطبخه على ملوخية؟!

الوجه: كانت أرانب مريضة على وشك الوفاة ... أي في حكم العادم!

الرجل: ومَن حَكَمَ بأنها مريضة على وشك الموت؟! هل استشرتَني؟ هل قام بفحصها أحدٌ من حضرات المساعدين؟!

الوجه: المسألة غير محتاجة ... أليس من الطبيعي أن تمرض الأرانب وتموت؟!

الرجل: ولماذا لا يمرض ويموت غير الأرانب؟! لدينا في المعمل حيوانات أخرى كثيرة في أقفاصها ... لماذا بقيت كلها في الأقفاص دون أن يختفي منها واحد؟!

الوجه: ما حصل حصل ... لكن العقوبة كانت قاسية ومُهينة لكرامتي، ومن يومها وأنا مريض بالسكر.

الرجل: ماذا كانت العقوبة؟

الوجه: أصدرتَ أمرك بحبسي في قفص النسانيس ليلةً بِطُولها!

الرجل: وماذا قلتَ للنسانيس في تلك الليلة؟

الوجه: لم أَقُل شيئًا.

الرجل: خسارة! ... كانت فرصة للتعارف!

الوجه: لقد شعرتُ بالمرض يدبُّ في كل جسمي.

الرجل: حقًّا ... أرى شاربك قد تهدَّل ... إنه قد تشوَّش ... بل هو ينتفش ... أصبح كالإسفنجة ... إنه يستدير ... يتكوَّر ... إنه ينقلب إلى كرة ملساء ... كرة من العاج ... أهي كرة البلياردو في النادي؟ ... لا ... إنها تبدو أكبر حجمًا ... هذه صلعة رجل ... نعم، عرفته ... إنه ذلك الصديق الذي ألاعبه «الطاولة» في النادي عندما أجد فراغًا ... أما هو فحياته كلها فراغ قاتل دون أن يشعر ... إنه يملؤها بصدى وقع حجر الزهر ... وصيحات الدُّرْجِي والشيش بيش ... ويبتسم ببلاهةٍ عندما أصفه بأنه واحد من ملايين البكتيريا الإنسانية التي تتمرَّغ في تراب الحياة.

الوجه: ومع ذلك تقول لي دائمًا إني أهمُّك لهذا السبب.

الرجل: نعم، كل أنواع البكتيريا تهمُّني.

الوجه: الحمد لله أني مهم ... لكنك مبتهج اليوم فوق العادة.

الرجل: عندما يُعافَى لك حبيب ويَنشَط بعد مرضه، ألا تبتهج؟!

الوجه: حبيب؟

الرجل: نعم، كاد يموت، ولكني تحايلت على بقائه حيًّا عندما وضعتُه في الثلاجة ... لم أكن أعرف بالضبط درجة الحرارة اللازمة له.

الوجه: وضعتَه في الثلاجة؟! أيُّ حبيب هذا؟

الرجل: مكروب.

الوجه: مكروب؟! حبيبك مكروب؟!

الرجل: اكتشفتُه بالمصادفة ... اكتشاف مكروب جديد أهم للبشرية من اكتشاف نجم جديد ... خِفتُ أن يموت ... كما لو كان عشيقة عزيزة.

الوجه: سبحان الله! عشيقة عزيزة!

الرجل: إنك تنظر إليَّ كما لو كنتُ مجنونًا!

الوجه: مجنون ليلى العصر الحديث ... روميو وجوليت عصر الذرَّة!

الرجل: صلعتك يتغيَّر لونها ... تصبح سمراء ... كرة سمراء ... بل هي وجه ... وجه أسمر اللون ... أسمر داكن ... وهذا أنف يُطِلُّ منه ... أنف أفطس ... عرفتُه ... عرفتُها ... عرفتُكِ ... أنت سمو الأميرة.

الوجه: نعم، أنا هي.

الرجل: نعم نعم، الأميرة الحبشية ... الإثيوبية.

الوجه: قالوا إنك من أنبغ الأطباء والعلماء في بلادك ... وهذا صحيح ... قبل أن تُستدعَى كان قد فحصني ثلاثة من كبار الأطباء الأوروبيين ... كيف استطعتَ أنت اكتشاف مرضي؟

الرجل: لَسْعَة تلك الحشرة.

الوجه: نعم، كيف عرفتَ أنت ذلك؟

الرجل: سبق أن أجريت بحوثًا من هذا النوع.

الوجه: إن الوسام الذي منحك إياه الإمبراطور هو أقلُّ مما تستحق.

الرجل: مكافأتي الحقيقية هي شفاؤك، والاكتشاف العلمي.

الوجه: إنك رجل ممتاز ... هل أعجبتك بلادنا؟

الرجل: نعم ... وخصوصًا تلك الغابة.

الوجه: ألا تراها مخيفة؟

الرجل: ولكنها رائعة ... ورحلة الصيد وذلك الأسد! ... أسد أفريقي ... مما نسمع ونقرأ عنه ... إنه حرٌّ، يتجول طليقًا ... على بُعدٍ مني طبعًا ... إنه يَصيد ... أو على الأصح يكتشف هو الآخَر.

الوجه: طعامه.

الرجل: نحن نقول ذلك.

الوجه: هذا أيضًا تكريم لك ... حفلة الصيد ... والبندقية التي أهداها إليك الإمبراطور.

الرجل: ثمينة جدًّا ... سأَصِيد بها الأسد.

زئير الأسد الخافت

الوجه: حذارِ من مواجهته بمفردك!

الرجل: لا تخافي ... إني معتاد مواجهة الخطر.

الوجه: هل ستذكرني بعد عودتك إلى بلدك؟

الرجل: طبعًا ... سيظل وجهك دائمًا ... نعم سيظل عالقًا برأسي دائمًا ... لكن، أين هو؟ ... أين ذهب الأنف ... الأنف الأفطس؟ ... هذا الذي أمامي الآن شيء متورم ... متورم جدًّا ... شيء أبيض كالقطن ... كالكفن ... هذه لوزة طفل ... بل طفلة ... طفلة مصابة بالدفتريا ... نعم، نعم ... إنها هي ... لكنها لا تتكلَّم ... ما هذا الوجه الآخَر بجانبها؟ ... وهذه الطرحة السوداء فوق الجبين ... لِمَن هي؟ ... وهذه العيون ... ما هذه العيون الدامعة؟ عيون مَن هذه التي تسيل هكذا بالدموع؟

الوجه: هذه أنا أمها ... أبكي وسأظلُّ أبكي عليها دائمًا ... أيُّها المجرم!

الرجل: أم الطفلة؟

الوجه: نعم، أمها الثكلى المكلومة الفؤاد المَكويَّة بالنار ... أمها التي جاءتك في تلك الليلة المشئومة ... تطلب حضورك سريعًا ... لكنَّك رفضتَ وصمَّمتَ على عدم الذهاب إلى تلك القرية إلَّا بخمسة جنيهات مقدمًا خلاف مصاريف الانتقال ... ومِن أين لي بالخمسة الجنيهات؟ وفي تلك الساعة؟ ... حلَّفتُك بشبابك ... ولكنك صمَّمت، وليس في المركز غيرك ... أنت طبيب صحة المركز ... لِمَن أذهب؟! ... أين أذهب؟! ... إن الرحمة ليست في قلبك ... وماتت الطفلة ... ماتت بنتي.

الرجل: اذهبي عني ... لا أريد رؤية هذا الوجه! ... فليذهب عني ... فليذهب ... لماذا يتجمَّد هكذا أمامي؟! لماذا يتسمَّر أمام بصري هكذا ... اذهب ... اذهب! ... آه، الحمد لله ... ها هو ذا يتبدَّد ... يتلاشى ... لقد تلاشى تمامًا ... لم يبقَ منه إلَّا تلك الطرحة السوداء ... لكنها لم تَعُد طرحة ... هذا شعر أسود ... شعر مَنكوش ... مَنفوش كالأدغال ... كالغابة ... عرفته ... هذا أنت تاجر الغنم.

الوجه: بل قُل صاحب المراعي الواسعة!

الرجل: مراعي القمل ... القمل الذي نُسمِّيه غَنَمًا.

الوجه: أوَليس القمل ضروريًّا لأبحاثك؟!

الرجل: حقًّا ... في أبحاث التيفوس خاصةً ... لكنك تبالغ في السعر.

الوجه: سعر التكاليف.

الرجل: أيُّ تكاليف؟ ... القمل في شعرك ... ومراعيك فوق رأسك!

الوجه: والتربية؟ ... والصيانة؟

الرجل: إنك تترك شعرك وكفى ... وهي تتربى وتتكاثر وحدها.

الوجه: وحدها؟!

الرجل: لا أريد الخوض في مهنتك ... كل الذي يعنيني هو أنك تُبالِغ في سعر القملة.

الوجه: لقد جعلتُ لك تخفيضًا ... عاملتك بسعر الجملة.

الرجل: ولكنك نقضتَ الاتفاق ... بعد تسليمي القمل هجمت بيدك تأخذه وتردُّه إلى شعرك وأنت تَصِيح: «هو القمل لعبة؟! مرمي في الشوارع؟!»

الوجه: طبعًا ... شيء له قيمته.

الرجل: لكن ... هل أنا رأيتُك حقيقةً ... أو أنها قصة سمعتُها؟! لم أعد أتبيَّن ... ربما أخلِط الآن بين القصص والحقائق ... ربما كان شعرك المنفوش هذا خيالًا أراه ... أتخيَّلك هكذا ولم يحدث قط أن قابلتني أو قابلتك ... ربما ... لكن ها هو ذا شعرك الأسود المنفوش ينقلب إلى ... ما هذا؟ ما هذا؟ ... هذا شيء مثل ... عباءة ... نعم، إنها عباءة ... هي عباءة أعرفها ... نعم، نعم، عرفتها ... إنها عباءته ... عباءة الباشا ... عندما يتجوَّل في أرضه وبساتينه.

الوجه: قلتُ لك لا فائدة ... لا تُتعِب نفسك ... مستحيل أُزوِّجك ابنتي ... أفهمت؟ ... طبيب صحة مركز صغير مثلك يجرؤ على طلب يد ابنتي؟! ... هذا تهريج يا دكتور!

الرجل: تهريج؟!

الوجه: يجب أن تعرف حقيقة وضعك بالنسبة إليها ... دخلك ومرتبك أقلُّ مما يُنفَق على حصانها الأبيض ... لا شك أنك تعرف حصانها الأبيض جيدًا.

زئير الأسد الخافت

الرجل: نعم ... وسمعتُ صهيله.

الوجه: ومع ذلك تُصِرُّ!

الرجل: كل الإصرار، وسأتزوَّجها.

الوجه: أنت شابٌّ مغرور.

الرجل: أنا شابٌّ لا يعرف اليأس، وسأنالها.

الوجه: اخرج من هنا!

الرجل: سأخرج، ولكنِّي سأعود يومًا.

الوجه: أنصحك ألَّا تعود ... أنا فاهم غرضك ... أنت طامع في مالها ... أنت تراها صفقة.

الرجل: أنا أراها فتاة تُعجِبني، وسأَظفَر بها، ولن أنهزم ... سأُكافِح.

الوجه: اذهب.

الرجل: العباءة السوداء تذهب ... الوجه يختفي ... ما هذا الشيء الغريب؟ ... هذا شيء أشبه بالقبعة ... قبعة ذات ريشة ... نعم، عرفتُها ... هي قبعتها ... صاحبتي السويسرية في زيوريخ.

الوجه: كنت أعرف أنك مسافر ذات يوم، وأنك سوف تتركني.

الرجل: لم تَعُد لي هنا إقامة، وأنت تعرفين ذلك.

الوجه: طبعًا، بعد أن نلتَ الدكتوراه بدرجة الشرف الكبرى ... وبعد أن ...

الرجل: أعرف ما ستقولين ... وبعد أن كنتِ لي خير عون ... خصوصًا في إتقان اللغة.

الوجه: والرقص.

الرجل: رقصة التانجو.

الوجه: نعم، رقصة التانجو ... اسمع ... اسمع.

الرجل: لن أنسى تلك الأنغام.

موسيقى تانجو

الوجه: هل تذكر تلك القُبلة في الضوء الوردي الخافت؟

الرجل: كانت أسعد ليلة في حياتي!

الوجه: كان سيُولَد لك مني طفل ... لكنك أحضرتَ لي من الصيدلية المُجاوِرة ذلك الدواء.

الرجل: لم أكن أريد لكِ التقيُّد بشابٍّ مثلي.

الوجه: بل قُل إنك كنتَ تُفكِّر في هَجْري.

الرجل: إني لم أخدعك ... كان يجب أن تفهمي أني عائد يومًا إلى وطني.

الوجه: لا تحاول تبرئة ضميرك ... كان في إمكانك أن تمكث معي ... لقد عرضوا عليك وظيفة جيدة في الجامعة، وأخرى في أحد المعامل الطبية الهامة ... لأول مرةٍ، فيما

علمتُ، تُعرَض مثل هذه الوظائف على أجنبي ... إن نبوغك يفتح لك الأبواب في كل مكان ... ولكنك رفضت ... لماذا؟ ... لماذا؟

الرجل: لأني تحدَّيت.

الوجه: تحدَّيت ماذا؟

الرجل: أن أنالها.

الوجه: ونسيتَني!

الرجل: لا ... وجهك المورَّد ... شعرك الأشقر ... زرقة عينَيك ... حتى قبعتك ذات الريش ... كل هذا معي ... دائمًا ... ها هو ذا معي ... أمامي ... لكن ... لكنَّه يتحوَّل ... يتغيَّر ... وجهك الناعم هذا ... ها هو يتحوَّل إلى شيءٍ آخَر ... إلى ماذا؟ ما هذا الوجه الحليق؟ ... إنه وجه رجل ... هذا الشخص الحليق أعرفه ... نعم، ما من أحد يحلق ذقنه هكذا ... بهذه العناية ... هذه المراهم المعطرة ... هذا أنت.

الوجه: نعم ... زميلك القديم ... في ذلك المستشفى ... إنك قد تُسمِّي ما حدث منك مزاحًا، ولكني أُسمِّيه باسم آخر.

الرجل: المُمرِّضة السويدية هي التي أغرتني بك ... كانت تقول في كل مناسبة إنها لم تُصادِف رجلًا أكثر أناقةً ولا نظافةً منك.

الوجه: وما الذي وخزك وضايقك في هذا؟! ... لماذا لجأت إلى تلك الحيلة اللئيمة الخسيسة؟!

الرجل: لم تَكُن حيلة ... إنها محض مُصادَفة.

الوجه: أتُقسِم أنك لم تتعمَّد عن قصدٍ أن تُريق زجاجة حمض الفينيك على ثيابي؟!

الرجل: هذا شيء قد يحدث في أي لحظة ... ولا أهمية له على الإطلاق، لكن الكارثة فيه عندك هو أنه اضطرَّك إلى خلع ثيابك في الحال، وعندئذٍ ظهرت من تحتها ملابسك الداخلية ... فإذا هي هلاهيل قذرة.

الوجه: والنتيجة؟

الرجل: النتيجة انهيار سمعتك في نظر المُمرِّضة وجميع زميلاتها.

الوجه: وهل كان هذا منك عملًا كريمًا؟! هل تظنُّ مِن كرم النفس أن تكشف عن ملابس الناس الداخلية؟!

الرجل: لم أستطع مقاومة هذا الإغراء ... أن أكشف للآخَرين عن أسرار يجهلونها.

الوجه: إنك لا تقدِّر الإساءة التي تُحدِثُها أحيانًا ... أو أنك تقدِّرها ولا تكترث لنتائجها.

الرجل: ربما ... لكن ... ما الذي أتى الآن بوجهك هذا أمامي ... أيُّ أهميةٍ لحادث كهذا؟! ... حَسِبتُ أني نسيتُه تمامًا ... مضت سنوات طويلة لم يَخْطُر وجهك على بالي ... ولا أعرف أين أنت الآن؟ ... وهل حيٌّ أنت أو ميت؟ ... اختفى الوجه الحليق ... نعم اختفى ... اختفى تمامًا ... هذا وجه آخر ... وجه مَن هذا؟ ... إنه ليس وجهًا أعرفه ... ليس وجهًا محددًا ... لست أتبيَّنه بوضوح ... أرى فقط شيئًا مثل اللِّبْدَة فوق الرأس ... هي لِبْدَة رجل ريفي ... إنه فلَّاح ... نعم، عرفتُه ... هو ذلك الريفي المُعدِم المجهول ... جاء إلى القاهرة لحضور مولد السيدة زينب ... فدهَمَتْه سيارة ... احتاج إلى نقل دم ليعيش ... لكن ... ها هو ذا وجه آخر بجانبه ... أعرفه طبعًا.

الوجه: طبعًا تعرفني ... أنا مساعدك في المستشفى.

الرجل: إذن آمرك أن تُسرِع بنقل دمي إلى هذا المسكين!

الوجه: مستحيل ... أنت مُجْهَد يا سعادة المدير ... لن تقوى على ذلك ... فلنبحث عن شخصٍ آخَر يتطوَّع.

الرجل: ليس هناك وقت للبحث ... وفصيلة دمي مماثلة لفصيلة دمه ... أسرِع!

الوجه: لكن صحتك أثمَنُ عندنا وللعلم من حياة هذا القروي المجهول!

الرجل: كفى هراءً ... أسرِع ... أسرِع!

الوجه: هذه مُجازَفة كبرى بحياتك ... إنك لم تزل في حالة إجهاد بعد تلك البحوث ... وبعد مرضك الأخير.

الرجل: إنك تُضيِّع الوقت في الثرثرة!

الوجه: رحمة قلبك هذه مشكورة، ولكن ...

الرجل: أرجوك ... الوقت ثمين.

الوجه: ما دمتَ مُصِرًّا هذا الإصرار.

الرجل: ها هو ذا مساعدي يختفي ... كل هذا قد اختفى ... اختفى سريعًا ... ما هذا الوجه الجديد ... وجه مَن هذا؟ ... هذا وجه غلام صغير ... نعم، عرفتك ... هذا أنت ابن عمي ... لن أنسى أن أمي ضربتني بسببك في ذلك اليوم ... شَدَّت أذني حتى كاد يسيل منها الدم.

الوجه: وهل نسيتَ الدم الذي كاد يسيل من فمي بسبب ضحكك على عقلي؟!

الرجل: حكاية الكنز المسحور!

الوجه: نعم، الكنز الذي قصَّت علينا والدتك حكايته ... ولكني لعبت معك بسلامة نية في ذلك اليوم، فإذا بك تُحضِر من المطبخ إناءَين ... أحدهما به فلفل مخلل حلو يأكل

منه والدك، والآخَر به فلفل مخلل حرَّاق تأكل منه والدتك ... ثم أوهمتني أننا إذا أكلنا معًا كل ما في الإناءَين فإن الكنز يُفتَح، وأعطيتني الإناء الحرَّاق ... واحتفظت لنفسك بالإناء الحلو.

الرجل: نعم ... وجعلتَ أنت تأكل حتى التهب فمك ... وصرت تبكي.

الوجه: من الألم ... وأردتُ أن أكفَّ ... لكنك جعلت تُحرِّضني وتُعيِّرني بأنك مستمرٌّ في الأكل بشجاعة ... وأنك تتحمَّل الألم مثلي دون شكوى أو بكاء.

الرجل: حقًّا ... انطلت عليك الحيلة.

الوجه: نعم ... ومضَيتُ أنظر إليك وأنت تأكل بغير عناء ... فأحاول جاهدًا أن أُحاكِيك ... لكني أنا كنت أزدرد النار المحرقة ... وأصرخ على الرغم مني ... وأنا مستمرٌّ مثلك في الأكل.

الرجل: وجاءت والدتي على صراخك.

الوجه: نعم، أنقذتني، ونزعت من يدي الإناء المحرق ... وشدَّت أذنك.

الرجل: شَدًّا شديدًا ... وجاءت والدتك وقالت لك: يا مُغَفَّل يا خايب! ... يضحك عليك الولد العفريت ابن عمك!

الوجه: لماذا فعلتَ بي ذلك؟!

الرجل: لا أدري، ولم أرَ وجهك مرة أخرى ... وجهك الصغير هذا ... منذ أن كنا نلعب معًا ... سمعتُ بعد ذلك أنك تُوُفِّيتَ على أثر مرض قصير ... وأنت لم تتجاوز العاشرة ... لكن وجهك الصغير هذا أذكره دائمًا ... لا يمكن أن أنساه ... نعم، إنه هكذا ... كما يبدو أمامي الآن ... لكنه يذهب ... يتغيَّر ... إنه يتحوَّل الآن إلى شيء آخر ... ما هذا؟ ... مَن هذا؟ ... ما هذا الوجه؟ ... هذا وجهٌ لا يمكن أن أعرف لِمَن هو؟ ... إنه مرسوم رسمًا دقيقًا ... كما لو كان الشخص أعرفه شخصيًّا ... لكني أستطيع أن أقسم أني لم أُصادِفه قط في حياتي ... إنه مِن صُنع خيالي إذن! ... نعم، ولِمَ لا؟! ... إننا نرى أحيانًا في أحلامنا وجوهًا نُصادِفها ونكرهها ونشعر كأننا نعرفها دائمًا ... لكنها ليس لها وجود ... لم يكن لها وجود على الإطلاق ... مَن الذي صنعها في رءوسنا؟ ... كيف وُجِدت هكذا ... بهذه الدقة ... بهذه الملامح ... بهذه الصفات ... بهذه التفصيلات؟ ... إني واثق أن هذا الوجه الذي أراه الآن أمامي لم يسبق له وجود ... وسيمضي بعد لحظة من أمامي ... دون أن يعود مرة أخرى إلى الوجود ... لن يعود أبدًا ... أبدًا ... مئات ... وربما ألوف ... وربما أكثر ... أعداد لا تُحصى من هذه الوجوه المجهولة نخلقها في رءوسنا ... وتعيش

لحظاتٍ كالبرق ... ونفقدها أيضًا إلى الأبد في لحظات ... من أين جاءتنا؟ ... وإلى أين تذهب؟ ... ها هو ذا أمامي وجه آخر يظهر ... إنه يتَّضح ... إنه بلِحية ... لِحية طويلة وقورة ... لكن هذا الوجه أعرفه ... نعم، عرفته ... عرفتك ... أنت مريضي الشيخ.

الوجه: نعم ... ولن أنسى فضلك ... لقد فعلتَ كلَّ ما في وُسْعِك لإنقاذي ... ولكنه الأجل.

الرجل: أهو الأجل أم عجزي؟

الوجه: استغفرِ الله!

الرجل: لا تفزع هكذا ... إن عجزي أو عجز العلم عن هزيمة الموت هو مدار بحثنا.

الوجه: قلت لك استغفر ربك ... ولا تتكلَّم هكذا.

الرجل: ثِق أني مؤمن ... ولكن عندما يدخل الأمر في اختصاصي فإني أتكلَّم هكذا.

الوجه: المهم هو أن تؤمن.

الرجل: صراحةً ... إني لا أفكر في ذلك ... ولكني واثق أن هذا يحدث ... يحدث على الرغم مني ... هل تقول لإنسان حيٍّ: المهم هو أن تجعل عرقك ينبض؟ ... إنه فعلًا ينبض ... دون أن يريد ... ودون أن يرفض ... ودون أن يفكر.

الوجه: هناك أحيانًا الشك.

الرجل: الشك والحيرة والإثبات والإنكار ... صيحات للعقل لا بد منها ... لكنَّ القلب ينبض في الداخل ... من تلقاء نفسه.

الوجه: الإيمان شيء ضروري.

الرجل: الإيمان شيء بشري.

الوجه: إني أموت مستريحًا.

الرجل: موتك راحة لك ... وهزيمة لي.

الوجه: نعم ... أشعر براحة.

الرجل: وأنا أشعر بتعب ... بالتعب المُقبِل ... بمُعاوَدة الكفاح ... كفاحي مستمرٌّ؛ لأن العلم مستمر ... ولكن وجهك يتغيَّر ... اللحية تستطيل ... أكثر وأكثر ... إنها تتقوَّس ... إنها تصبح قوسًا ... إنها قوس في الفضاء ... في السماء ... هذا قوس قُزَح ... ما أبْهَى هذه الألوان! ... ما هذا الجمال كله؟! ... لكن هذه تركيبات لونية عجيبة ... مَن الذي أبدعها هكذا؟! ... مَن مُبدعها ومُكوِّنها أمام عيني الآن؟! ... أي نَحْل سماوي نسج هذه الخلايا المتسقة وملأها هكذا بالألوان؟! ... ألوان تتداخل وتتشابك في تشكيلات جميلة لا عدد لها ... لكن ... هذه نوافذ زجاجية مُلوَّنة لكاتدرائية ... وهذه ... ماذا أسمع؟ ...

إنها موسيقى ... إنه عيد الميلاد ... (تُسمَع عندئذٍ موسيقى أوراتوريو مثل جبل الزيتون لبتهوفن) بل هذا زجاج مُلوَّن في قِبَاب حمام شرقي ... بل هذه قباب مسجد ... هذا مسجد الحسين ... وها هي ذي أصوات المصلين صلاة عيد الأضحى ... (تُسمَع أصوات المصلين: الله أكبر الله أكبر ... لا إله إلا الله ... الله أكبر كبيرًا ... والحمد لله كثيرًا ... وسبحان الله بكرةً وأصيلًا ... لا إله إلا الله ... إلخ، إلخ) ... لكن الألوان الآن على حائط ... نعم، إنها ألوان غريبة قديمة غاية في القِدَم ... لكني أراها زاهية ... هذا معبد فرعوني ... وما هذه النافذة أمامي؟ ... هذا الزجاج أعرفه ... أعرف هذه الألوان ... إنها نافذة السُّلَّم الكبير ... نعم، نعم في بيتنا ... النافذة الكبرى في وسط السُّلَّم ... أصرَّت زوجتي على استحضار هذا الزجاج الملون من إيطاليا ... إنها تفخر دائمًا بألوانه ... ما هذا الوجه؟ ... يُطِلُّ من بين زجاج النافذة ... هذه أنت ... ماذا بك يا عزيزتي؟ ... لماذا هذا الوجه الحزين المكتئب؟ ... لماذا أنت حزينة اليوم؟

الوجه: إنك لم تَعُد تتذكَّر أن لك زوجة!

الرجل: العمل يا عزيزتي ... العمل.

الوجه: نعم، العمل.

الرجل: لا بد من هذا.

الوجه: ونسيتَ أني كنت يومًا مُنْتَهَى أملك!

الرجل: مُنْتَهَى؟! أيمكن أن يكون هناك مُنْتَهًى ونحن على قيد الحياة؟!

الوجه: والحصان الأبيض ... نسيتَه!

الرجل: هذا لن أنساه ... حقًّا ... كنتِ رائعةً يومئذٍ ... كلَّما جئتِ تمضين الإجازة في بساتين أبيك ... كان قلبي يتعلَّق بذيل حصانك.

الوجه: ذيل حصاني!

زئير الأسد

الرجل: نعم ... صهيل حصانك.

الوجه: ونلتَني أخيرًا.

الرجل: لا بد أن أنال ما أريد.

الوجه: هل أعطيتُك السعادة؟

الرجل: بدون شك.

الوجه: لا أُصدِّق.

الرجل: صدِّقي ... إني سعيد معك ... وبك ... لا جدال في هذا ... لكن ...

الوجه: لكن ماذا؟ ... تكلَّم.

الرجل: إني سعيد طبعًا ... لا أستطيع القول إني تَعِس ... ولكن هنالك مع ذلك شيء ... شيء يجعلني لا أهدأ ... يجعلنا لا نهدأ ... نحن في رحلة صيد مستمرة.

الوجه: قُل بصراحةٍ إنك لم تَعُد تُحبُّني.

الرجل: تذكَّري أن لنا ابنة متزوجة!

الوجه: وماذا في هذا؟

الرجل: أنا في الخمسين وأنت في الأربعين ... وما زلتِ تتحدَّثين عن الحب كما لو كُنَّا في ربيع شبابنا؟!

الوجه: لأنه أجمل ما في الحياة ... وأنت لا تدري.

الرجل: أدري.

الوجه: أحيانًا تدري ... ولكنك تجري دائمًا تبحث عن شيء ... وأنا أجري خلفك أبحث عنك.

الرجل: إذن هو الجَرْي دائمًا.

الوجه: نعم.

الرجل: كُفِّي إذن عن الحديث في هذا الموضوع.

الوجه: ومع ذلك لن أغضب منك ... غضبًا حقيقيًّا ... لأني أعرف جيدًا أني عندما أبتعد عنك فإنك تلتفت لتبحث عني.

الرجل: هذا صحيح ... وقد حدث.

الوجه: وسيحدث دائمًا.

الرجل: نعم ... شيء يربطني بك هو أعقدُ من أن يُفسَّر ... وعلى البُعد خاصةً ... يقوى الرباط ... وفي ضعفي ويأسي ومرضي ... بدون يدك يصبح العلاج عسيرًا ... جرَّبْتُ ذلك مرارًا ... يكفي أن تكوني بجانبي ولو بالخيال لأستطيع الوقوف من جديد ... مثلي الساعة ... الآن ... إني في حالة غريبة ... قد تُشبِه المرض ... إنها ليست مرضًا بالضبط ... إنه خمول ... خمود ... ضعف ... تخدير ... نصف يقظة ... نصف نوم ... لم أَعُد أشعر بالوقت ... الزمان والمكان حولي لا وجود لهما ... لست أدري أين أنا بالضبط؟ أين وجهك يا عزيزتي؟ ... ذهب هذا الوجه ... حتى وجهك قد تلاشت قَسَماته ... تشوَّشت

ملامحه ... كل شيء أمامي الآن مُشَوَّش ... كل شيء يتداخل بسرعة في كل شيء ... يدخل بعضه في بعض ويتشوَّش ... كدوَّامة في تيار ماء عَكِر يجري ... لم أَعُد أُبصِر أحدًا ولا شيئًا مُحَدَّدًا ... لم أَعُد إنسانًا ... مَن أكون إذن؟ ... ما هذا الشيء الذي كنتُ أعنيه بكلمة «أنا»؟ ... هذا شيء طري رخو ... ما هذا الشيء الطري الرخو كقطعة اللحم ... أهو أنا حقًّا؟ ... ماذا يمكن أن تكون هذه القطعة المتكوِّرة الكبيرة من اللحم؟ ... إنها مستقلة عني ... مستقلة تمامًا ... أشعر بذلك الآن ... يا للرعب! ... إنها ليست أكثر من قطعة هشَّة ... إني خائف! ... مَن أكون أنا إذن؟ ... مَن أكون إذن؟ ... مَن أكون؟!

زئير الأسد يشتد

ولكني ... لست مجرد قطعة لحم ... الأسد هو الذي يراني كذلك ... ولكن الأسد بعيد، وبندقيتي في يدي، ولم أسمع له زئيرًا ... إنه بالطبع سيزأر عندما يقترب ... وسأنتصر عليه ... إني لست قطعة لحم فقط ... إني شيء آخر أيضًا ... ما هو؟ لستُ أدري الآن ... ولكني واثق ... واثق ... ما هذه الأنفاس الملتهبة على وجهي؟ ... إنها أنفاس قوية ... حارَّة كاللهب ... رائحتها كريهة ... إنها تلفحني ... هذه الأنفاس ... تكاد تحرق وجهي ورائحتها كريهة ... كريهة.

(أصوات في الأدغال تصيح ... وطلقات نارية تُدوِّي.)

الأصوات (في الخارج)**:** النجدة، النجدة! ... أنقِذوه ... أسرِعوا ... الدكتور في فم الأسد.

(الرجل يفطن ويُقاوِم بشدة رافعًا يده إلى أعلى.)

(ستار)

رحلة قطار

(مسرحية في فصل واحد)

(قطار يسير وسط المزارع ... ليلًا في ضوء القمر المكتمل ... القاطرة وحدها هي التي تظهر على المسرح ... القطار مُسرِع لأن ذراع القاطرة تدور بسرعة والقطار يهتزُّ اهتزازًا شديدًا لافتًا للنظر ... الوقَّاد يقف أمام فرن القاطرة المفتوح، بساقه اليسرى الخشبية، وفي يده جاروف الفحم ... والسائق مغمض العينين كالحالم، يترنَّم بأنغامٍ خافتة.)

الوقَّاد: يترنَّح ... يترنَّح الملعون!

السائق: صوت مَسيرِه فوق القضبان ... تريك تراك تريك تراك تريك تراك تريك تراك تريك ... ما من موسيقى أشهى من هذا الصوت! ... تستطيع أن تتصوَّر أيَّ لحن شئتَ على هذا السلَّم الموسيقي!

الوقَّاد: ولكنَّه يترنح! ألا تلاحظ هذا الترنُّح؟!

السائق: فليترنَّح ... تريك تراك تريك تراك تراك تريك تراك تراك تريك تراك.

الوقَّاد: كالسكير العجوز في ليلة ممطرة!

السائق: قطار عتيق ... حقًّا ... تريك تراك تريك تراك تراك.

الوقَّاد: وبهذه السرعة أيضًا!

السائق: لا تقلق! ... تريك تراك تريك تراك تراك تريك تريك تراك تراك تريك تراك.

الوقَّاد: الحمد لله أننا لم نَسِرْ به في عاصفة الأمس! ... إن عاصفة الأمس التي اقتلعت كل شيء كان من الممكن أن ...

السائق: حقًّا ... عاصفة الأمس ... تريك تراك تريك تراك تراك تريك تراك تريك.

الوقَّاد: خصوصًا وهذه العجلات المُفكَّكة الصواميل.

السائق: آه ... لا تُذكِّرني بالعجلات.

الوقَّاد: هذا شيء مُرعِب!

السائق: وأي رعب! كلَّما تصوَّرتُ أننا نسير بقطار مُفَكَّك العجلات!

الوقَّاد: وبهذه السرعة!

السائق: كان يجب أن نحاول مرةً أخرى رَبْطَها جيدًا.

الوقَّاد: حاولنا ... وأنت تعرف ذلك جيدًا ... لكن الصواميل مُستهلَكة مُتحلِّلة ... كلَّما ربطناها تفكَّكت.

السائق: المهم أنه يسير.

الوقَّاد: بمعجزة!

السائق: فليكن! ... بمعجزة! ... ولِمَ لا؟!

الوقَّاد: حقًّا ... ولِمَ لا؟ ... لكل عصر معجزته ... وها هو ذا الميت يسير بأقدام مُخَلَّعة!

السائق: أنت أيضًا بساق خشبية ... ولكنك تسير.

الوقَّاد: إنه أخذ يُبطئ.

السائق: أَلْقِمْه قطعة فحم.

الوقَّاد: الفحم أخذ ينفد.

السائق: حقًّا ... هنا المشكلة.

(الوقَّاد يجرف من الفحم ويُلقي به في الفرن.)

الوقَّاد: انظر ... هذا الفم المفتوح دائمًا ... كالغول!

السائق: لا بد من الوصول بسرعة.

الوقَّاد: أخشى في النهاية ألَّا نجد ما نُلقي به إليه!

السائق: لا تُفكِّر في النهاية!

الوقَّاد: في النهاية، سأُلقِي إليه بساقي الخشبية ... أعرف ذلك.

السائق: قطار عتيق ... كلَّما تقدَّم عمره ازداد أكله.

الوقَّاد: فم واسع ... وفحم قليل ... وعَجَل مُتحلِّل ... ويأكل بأسرع مما يسير!

السائق: المهم الوصول بالسلامة.

الوقَّاد: نعم ... بالسلامة!

السائق: المحطة الآن تقترب ... الكشك رقم واحد ليس ببعيد عنا الآن.

الوقَّاد: وهل السكة مفتوحة؟

السائق: انظر الإشارة ... لا بد أنها الآن قد ظهرت واضحة.

الوقَّاد (ينظر): نعم، ظهرت واضحة ... لكنها ... لكنها ... عجبًا! ... عجبًا! ... السكة مقفولة!

السائق: مقفولة؟!

الوقَّاد: الإشارة حمراء.

السائق: كم الساعة الآن؟

الوقَّاد: ساعتي واقفة.

السائق: ساعتي أنا سائرة ... (ينظر فيها) نحن في ميعادنا ... لا بد أن تكون السكة مفتوحة ... انظر جيدًا.

الوقَّاد: نظرتُ جيدًا ... وها أنا ذا أُعِيد النظر جيدًا ... (ينظر جيدًا) الإشارة حمراء.

السائق: مستحيل!

الوقَّاد: انظر بنفسك.

السائق: طبعًا ... لا بد أن أنظر بنفسي ... (ينظر) أنت أعمى ... إنها خضراء.

الوقَّاد: خضراء؟!

السائق: مثل البرسيم الأخضر ... والسكة مفتوحة على ما يرام.

الوقَّاد (يعيد النظر): شيء عجيب ... ولكنها أمامي حمراء ... حمراء مثل شعلة النار ... مثل عين العفريت.

السائق: إنها عينك أنت!

الوقَّاد: بل هي الإشارة.

السائق: الإشارة خضراء يا أعمى! ... افتح عينك جيدًا وانظر.

الوقَّاد (ينظر مُدقِّقًا): سبحان الله! نظري مع ذلك سليم ... ستة على ستة ... حمراء ... والله العظيم حمراء!

السائق (يعيد النظر): ها هي أمامي ... خضراء.
الوقَّاد (يُدقِّق النظر): وها هي أمامي ... حمراء.
السائق: أتريد مني أن أعتمد على نظرك أنت؟!
الوقَّاد: لا طبعًا ... أنت السائق المسئول ... لكن إذا اتَّضح أنها حمراء فعلًا ... وأنَّ السكة مقفولة فعلًا ... لخطرٍ في الطريق ... فإنك ستُسأَل عن أرواح خمسمائة راكب!
السائق: وإذا اتَّضح أنك أنت الأعمى؟!
الوقَّاد: لا ضرر ... ستصفعني ... هذا كلُّ ما في الأمر ... وأنا نفسي سأُقدِّم لك صُدغي للصفع ... لكن لا بد من وقف القطار الآن ... وفي الحال ... لحين التأكُّد.
السائق: وقف القطار؟
الوقَّاد: دقيقة واحدة ... لتتأكَّد أني أعمى ومستحقٌّ للصفع.
السائق (بعد تردُّد): لا مانع ... إني مشتاقٌ إلى صفْعِك!

(السائق يقوم في الحال بوقف القطار، ثم ينزل من القاطرة ويتبعه الوقَّاد ... ويُعاوِدان النظر مرةً بعد مرةٍ بكل إمعان.)

الوقَّاد: النظر من الأرض أَثبتُ ... مرةً أخرى أراها حمراء.
السائق: لم يَبْقَ عندي شك في أنك عَمِيت ... النور الأخضر في أعلى السيمافور يتألَّق على أشُدِّه!
الوقَّاد: بل هو الأحمر ... والله!
السائق: يا ناس! ... أهذا أحمر؟! ... إني لم أفقد بصري ... هذا أخضر ... هذا لون أخضر.

(يظهر أحد الرُّكَّاب آتيًا من جهة العربات، زيه ينمُّ عن فنان، وبالأخص موسيقي يحمل في يده حقيبة صغيرة.)

الموسيقي: لماذا توقَّف القطار؟
الوقَّاد: السكة مقفولة.
الموسيقي: يا للعطلة! ... أسنقف هنا طويلًا؟!
الوقَّاد: علمي علمك!

السائق (كمن هبطت عليه فكرة)**:** اسمع يا حضرة ... سؤال بسيط من فضلك ... هل تستطيع أن ترى سيمافور الإشارات هناك؟

الموسيقي: هناك؟

السائق (يُشير له)**:** نعم هناك ... أمامك ... في أعلاه نور.

الموسيقي (ناظرًا)**:** نعم ... نعم، هذا نور حقًّا ... يُضيء هناك.

السائق: ما هو لون هذا النور؟

الموسيقي: لونه أخضر.

السائق (في فرحة)**:** يُنصر دينك! أخضر ... لونه أخضر ... قُل لهذا الأعمى.

الوقَّاد (للموسيقي)**:** أهو أخضر أم أحمر؟!

السائق: سبق أن قال يا أخي ... ألم تسمع؟

الوقَّاد: لم أسمع جيدًا.

الموسيقي: أخضر.

السائق: أسمعت؟

الوقَّاد (للموسيقي)**:** أأنت تراه بعينك أخضر؟

السائق: طبعًا رآه بعينه ... بماذا تريد أن يراه إذن؟!

الوقَّاد: هل أنت متأكد؟

الموسيقي: بالطبع متأكد.

السائق: بالطبع هو متأكد؛ لأنه رجل مُبصِر.

الوقَّاد: ما هي صَنْعَة حضرتك؟

السائق: عجايب! ... وما شأن صَنْعَتِه؟

الوقَّاد: هل السؤال حرام؟

الموسيقي: لا بأس ... أُريحه ... موسيقي.

الوقَّاد: موسيقي؟ طبعًا ... كثرة النفخ تُقِل النظر.

الموسيقي: النفخ؟!

الوقَّاد: هذا شيء معروف ... اسأل أيَّ زَمَّار في الناحية يَقُل لك.

الموسيقي: أنا يا سيدي لا أستعمل آلات نفخ!

الوقَّاد: ألم تَقُل إنك موسيقي؟

الموسيقي: نعم، ولكني أستخدم آلة أخرى ... تحب أن تراها؟ ها هي.

(الموسيقي يفتح حقيبته الصغيرة ... ويُخرِج منها زوج شخاشيخ كبيرة مما يُستعمَل في فِرَق الجازباند بالكباريهات وغيرها، ويهزُّهما مُحدِثًا بهما ذلك الصوت المعروف.)

الوقَّاد: ما هذا؟

السائق: هل هذا أيضًا له علاقة بالنظر؟

الوقَّاد: أهذا هو كل عملك؟

الموسيقي: من عشرين سنة.

الوقَّاد: تُحدِثُ هذه الدوشة من عشرين سنة؟! قطارنا هذا يصنع مثل هذه الدوشة من أربعين سنة ولا أحد يُسَمِّيه موسيقيًّا!

الموسيقي: مُتشكر!

السائق (للوقَّاد)**:** احفظ أدبك مع الناس الطيبين ... وإلَّا والله العظيم أرقع لك صُدغك ... ومع ذلك أنت مُستَحِقٌّ للصفع ... هل نسيت الوعد؟ ... مَن الخاسر الآن؟ ... اقترب ... اقترب.

(يظهر رجل وجيه المظهر كرجال المال والأعمال، من جهة العربات.)

المالي: لماذا وقف القطار؟

الموسيقي: جئتُ أسأل نفس السؤال.

المالي: حقًّا ... أنا لاحظت اختفاءك من المقعد أمامي ... إذن قُل لي لماذا وقف القطار؟

الموسيقي: لأن ...

السائق: لأني أنا الغلطان ... سنستأنف السير حالًا ... إلى مقاعدكم ... (للوقَّاد) وأنت هيَّا بنا ... أنا مُغَفَّل أسمع كلام العميان ... تفضل أمامي!

الوقَّاد: لحظة واحدة ... نسأل هذا السيد ... بالمرَّة.

السائق: نسأله في ماذا؟

الوقَّاد: في مسألة النور.

السائق: هذه مسألة انتهينا منها ... هيَّا بنا!

الوقَّاد: زيادة الخير ... ليطمئنَّ قلبي!

السائق: فليكن ... تسمح يا سيد؟

المالي: أفندم.
السائق: النور في سيمافور الإشارات هناك ... حضرتك تراه؟
المالي (مشيرًا بإصبعه)**:** هناك!
السائق: بالضبط ... هناك يوجد نور في أعلاه.
المالي: حقًّا ... يوجد هناك نور.
السائق: ما لون هذا النور؟
المالي: لونه أحمر.
الوقَّاد: أحمر؟! ... ينصر دينك! فليَحْيَ العدل!
السائق (مأخوذًا)**:** أحمر؟
الموسيقي (للمالي)**:** تقول أحمر؟!
المالي: بالطبع أحمر ... هذا واضح كالشمس!
السائق: انظر جيدًا يا حضرة المحترم ... يوجد هناك لون أخضر ولون أحمر ... ألا تراه أخضر؟
المالي: لا ... أبدًا ... إنه أحمر.
السائق: هل أنت متأكد أن اللون أحمر؟
المالي: متأكد جدًّا.
السائق: اسمح لي ... ما هي صَنْعَة حضرتك؟
الوقَّاد: وما دخل صنعته؟!
السائق (للوقَّاد)**:** عجايب ... شيء بارد!
المالي: تريد أن تعرف صنعتي؟ ... اسأل حضرته يَقُل لك مَن أنا (يُشير له إلى الموسيقي).
الموسيقي: هو صاحب مصانع كبيرة.
الوقَّاد: يعني أنه شيء مهم جدًّا.
السائق: مصانع ماذا؟ ... نظارات طبية مثلًا؟
المالي: لا يا سيدي ... أنا لا أحتاج لنظارات طبية ولا غير طبية ... النظر سليم والحمد لله!
السائق: العفو ... أنا قصدي مجرد السؤال.
المالي (للموسيقي)**:** قُل له ما هي مصانعي؟

الموسيقي: هي مصانع شخاشيخ.
السائق: ماذا؟!
المالي: شخاشيخ ... ألا تعرف ما هي الشخاشيخ؟! مثل هذه التي في يد حضرته (يُشير إلى الموسيقي).
الموسيقي (يَهُزُّ الشخشيخة)**:** نعم، سيادته هو الذي يصنعها ... مصانعه هي التي تُخرجها.
السائق: أنعِم وأكرِم!
الوقَّاد: يعني سيادته موضع ثقة!
السائق: في الأصوات ... بدون شك ... ولكن نحن الآن في الألوان.
الوقَّاد: وسيادته يؤكد أن اللون أحمر ... وهو بالفعل أحمر.
السائق: في نظرك.
الوقَّاد: ونظر سيادته.
السائق: مع الأسف، ولكني أؤكد أنه أخضر ... وحضرة الموسيقي يؤكد معي.
الموسيقي: حقًّا ... إنه أخضر.
المالي (للموسيقي)**:** كيف تقول ذلك؟ إنه أمامك أحمر! أحمر!
الموسيقي: أكذب على نفسي؟! ... إنه أخضر ... أخضر.
السائق: المسألة الآن تعقَّدت.
الوقَّاد: الحمد لله أني لم أصبح وحدي الأعمى!
السائق: اسكت! ... سُدَّ فمك.
المالي: والحل الآن؟
الموسيقي: حقًّا ... لا يجوز وقوف القطار هكذا طويلًا.
المالي: مصالحي ستتعطَّل.
الموسيقي: وأنا ... خطيبتي في انتظاري.
المالي: خطيبتك؟ ... إنها تستطيع أن تنتظر ... لكن أعمالي ...
الموسيقي: بالعكس ... ظروفي دقيقة ... سنَعقِد زواجنا غدًا.
المالي: وأنا سأُطلِّق زوجتي غدًا.
الموسيقي: تُطلِّقها ... لماذا؟ ... ألم تُنجِب لك أولادًا؟
المالي: بل لأنها تريد أن تُنجِب أولادًا ... وأنا لا أريد.

الموسيقي: ألا تحب الأولاد؟

المالي: لا.

الموسيقي: عجبًا ... أنت الذي تصنع كل شخاشيخ لُعَب الأطفال؟!

المالي: لا أمقُتُ شيئًا مثل الأطفال ... وأنت؟

الموسيقي: أنا؟! ... أنا لا أريد الزواج إلا لكي أُنجِب الأطفال ... وكل لحظة تمرُّ الآن تُؤخَذ من عمر طفل لي سيُولَد ... لذلك أريد أن أُسرِع ... (للسائق) يا حضرة السائق ... إلى متى هذا الوقوف؟! لا بد من السير.

السائق: حقًّا ... لا بد من اتخاذ قرار.

الموسيقي: وبسرعة.

الوقَّاد: ليس هذا بالأمر السهل ... ما دام النور أحمر فمعنى هذا أن السكة مقفولة ... يعني أن الطريق أمامنا خطر.

السائق: هذا إذا كان النور أحمر حقيقةً ... أما إذا كان أخضر فوقوفنا هنا هو الخطر؛ لأن قطار الإكسبريس التالي سيلحق بنا بعد قليل، وسيصدمنا من خلفنا، ويجرفنا جَرْفًا.

الموسيقي: يا للكارثة!

المالي: حقًّا.

الوقَّاد: والكارثة أيضًا إذا سِرْنا والسكة مقفولة لخطرٍ أمامنا ... طبعًا ... لكن ... هل السكة مفتوحة أو مقفولة؟! هنا المسألة.

(سيدتان تظهران ... إحداهما سيدة ظاهرة التبرُّج، مُلفِتة للنظر بمظهرها ... ترتدي البنطلون الفاقع اللون ... بينما الأخرى تبدو آنسة أنيقة في تحفُّظ واحتشام وبساطة.)

السيدة: لماذا وقف القطار؟

المالي: هذا هو موضوع بحثنا هنا.

الموسيقي: الست والست معانا في نفس الديوان ... أليس كذلك؟

المالي: عجبًا لك! أهذا سؤال يُسأَل؟! ألم تلاحظ وجودهما؟

الموسيقي: أقصد بالطبع ...

المالي: تقصد ماذا يا أخي؟ ... الأدب مع السيدات يقتضي إشعارهن دائمًا بأنهن موجودات.

السيدة (تضحك)**:** بدون شك.

الموسيقي: والست والست سيدات أو آنسات؟

السيدة: خمِّن!

المالي: هذا أيضًا سؤال لا يُسأَل ... اعتبرهنَّ آنسات أولًا إلى أن يثبت العكس.

السيدة: إني لست آنسة ... ولا أيضًا متزوجة.

الموسيقي: كيف ذلك؟!

السيدة: تزوَّجتُ مرة ... وسَعَيتُ إلى الطلاق.

المالي: برافو!

السيدة: ولم أُنجِب أولادًا.

المالي: برافو ... برافو!

السيدة: وإني سعيدة بحريتي.

المالي: برافو ... برافو ... برافو!

الموسيقي (للآنسة)**:** وحضرتك؟ ... مثلًا؟!

الآنسة: لا ... أنا لم أتزوج بعد.

الموسيقي: ولكنك لا ترفضين فكرة الزواج؟

الآنسة: لا ... إني أحب البيت والأولاد.

الموسيقي: برافو! ... وحريتك؟

الآنسة: لا أريد أن تكون حريتي لنفسي ... أريد أن أُعطي حريتي لمن أُحبهم.

الموسيقي: برافو ... برافو! ... زوجك وأولادك مثلًا؟

الآنسة: نعم.

الموسيقي: برافو ... برافو ... برافو!

الآنسة: لكن ... القطار ... هل سيستأنف السير قريبًا؟

الموسيقي: السائق هو الأدرى ... يظهر أن في الأمر مشكلة!

السائق (صائحًا)**:** لا بد من اتخاذ قرار ... حالًا.

الوقَّاد: فلنسأل السيدتَين أيضًا.

السائق: ضروري ... وإذا حصل ترجيح ولو بصوت واحد فسأتحرك في الحال.

الوقَّاد: لك ذلك.

السائق (للسيدة)**:** من فضلك، انظري هناك ... في هذا الاتجاه ... يوجد نور فوق السيمافور.

السيدة (تنظر)**:** نعم ... حقًّا.

السائق: ترين هذا النور؟

السيدة: طبعًا ... أراه جيدًا.

السائق: ما هو لونه؟

السيدة: لونه أحمر.

الوقَّاد: الحمد لله!

السائق: اسكت أنت! ... أحمر؟ ... أنت متأكدة؟

السيدة (وهي تنظر)**:** متأكدة جدًّا.

السائق: عجيبة!

الوقَّاد: ما رأيك الآن؟

السائق: نسأل الآنسة أيضًا.

الوقَّاد: تفضل!

السائق: اسْمَحِي لنا يا آنسة ... النور العالي هناك ... ما لونه؟

الآنسة (تنظر)**:** لونه أخضر.

الوقَّاد: متأكدة؟

الآنسة: كل التأكد ... أخضر.

السائق (للوقَّاد)**:** ما رأيك؟

الوقَّاد: شيء يُحيِّر.

السائق: لم نتقدَّم خطوة.

الموسيقي: والنتيجة؟

المالي: هل القطار سيَبِيت هنا؟

السائق: مستحيل ... خطر الوقوف أشدُّ من خطر السير.

الوقَّاد: وخطر السير أشدُّ من خطر الوقوف.

الآنسة: اسألوا أيضًا غيرنا.

الموسيقي: فعلًا ... لا بد أن يكون من ركاب القطار.

السيدة: اسألوا القطار كله وخَلِّصونا.
السائق: ولِمَ لا؟!
المالي: أسرع إذن ... أرجوك.
السائق: فكرة طيبة ... نسأل جميع الركاب.
الوقَّاد: أذهب أنا وأجمع لك الآراء.
السائق: لا يا سيدي ... لن تذهب وحدك ... أنا معك ... تعالَ معي ... وإياك والتعليق بحرف على الإجابات.
الوقَّاد: لا مني ولا منك.
السائق: طبعًا ... هَلُمَّ بنا نَمُرُّ على كل العربات ونسأل ... (للحاضرين) ابقوا هنا أنتم إذا شئتم لحراسة القطار.

(يخرج السائق وخلفه الوقَّاد في اتجاه العربات.)

الموسيقي: حراسة القطار؟ ... وهل هناك مَن يستطيع سرقة هذا القطار؟!
المالي: على فكرة ... كم طُن حديد في هذا القطار؟
الموسيقي: لماذا؟ ... هل تريد أن تسرقه؟
المالي: أريد أن أشتريه.
الموسيقي: تشتري القطار؟
المالي: ولِمَ لا؟
الموسيقي: وماذا تفعل به؟
المالي: أَصهَره ... نحن نحتاج في المصنع إلى كذا طُن حديد في العام.
الموسيقي: تُحوِّل القطار إلى شخاشيخ؟!
المالي: أليس هذا أفضل؟!
الموسيقي (يَهُزُّ الشخشيخة)**:** حقًّا!
المالي: أستطيع تقدير وزنه بسهولة ... يجب أولًا أن أعرف كم عدد عجلاته ... هَلُمَّ بنا نَعُدُّ عَجَلَ العربات.
الموسيقي: اذهب وعُدَّها أنت ... إني سأبقى هنا.
المالي: تعالَ معي.
الموسيقي: لا ... لا شأن لي.

المالي: افعل شيئًا نافعًا مرةً في حياتك.
الموسيقي: وهل أنا ...؟!
المالي: لا تُضيِّع الوقت ... تعالَ!
الموسيقي: ليس من اللائق ترك الآنسات.
المالي: لحظة واحدة ونعود سريعًا ... (للسيدتَين) هل تسمحان؟!
السيدة: بالطبع.

(المالي يقود الموسيقي ويخرج به إلى خلف القطار ... وصوت الشخشيخة في يد الموسيقي يُسمَع ثم يتضاءل كلما ابتعدا.)

الآنسة (تُخرِج من حقيبتها الصغيرة شُغل تريكو وتعمل): هذا الموسيقي طيب القلب! ألا ترين ذلك؟
السيدة (وهي تُخرِج عُلبة البودرة وتتزيَّن): أنا لا يُعجبني هذا النوع.
الآنسة: تُفضِّلين الآخَر؟
السيدة: كم طُن ذهب يحتوي عليه ... في تقديرك؟
الآنسة: تريدين أن تشتريه.
السيدة: أريد أن أسرقه.
الآنسة: ماذا تقولين؟! ... ما هذا الذي تقولين؟!
السيدة: لا تخافي ... لا داعي لكل هذا الرعب! هذا شيء طبيعي ... رجل في هذا الثراء ... ماذا سيصنع بكل هذا المال؟!
الآنسة: وما شأنك بماله؟!
السيدة: ما شأني؟ ... أنتِ عبيطة!

(أصوات في الخارج من جهة العربات تُسمَع واضحة ... إنها أصوات السائق والوقَّاد وركَّاب القطار ... تُصغِي إليها السيدتان في صمت وهما مُنهمِكتان، إحداهما في شُغل الإبرة، والأخرى في عمل التواليت ... وتُعلِّقان فقط على ما تسمعان ... بالحركة والإشارة والإيماءة والضحكة ... بحسب المناسبة.)

السائق (من الخارج): يا حضرات الركَّاب ... من فضلكم ... لحظة ... نريد من حضراتكم أن تقولوا لنا ما هو لون الإشارة ... إشارة السيمافور ... هناك؟

أصوات (مختلطة صائحة في هرج ومرج): إشارة؟! سيمافور؟! ... أيُّ إشارة ... ماذا قال؟ ... اسمع هناك ... يقول سيمافور ... إشارة ... سيمافور يا تور ... إنت التور ... اخرس!

الوقَّاد (صائحًا): هس ... سمع ... سمع ... يا حضرات ... هذا لا يصح ... لا يليق ... الحكاية كلها مجرد سؤال ... نسأل؟

أصوات (صائحة في اختلاط): تفضل! تفضل! ... أنا أجاوب ... أنا أقول ... أنا الأول ... اسكت أنت!

السائق: حلمكم ... الصبر طيب ... واحد واحد ... حضرتك مثلًا ... نبتدئ بحضرتك ... نعم، أنت ... أنت يا حضرة الأفندي ... لا، لا ... حضرته الذي يقرأ الجريدة.

الأفندي: أنا؟

السائق: نعم أنت ... انظر من فضلك هناك ... هناك حيث أشير بإصبعي ... هذا اللون ... تراه؟

الأفندي: نعم أراه ... هذا لون أخضر.

السائق: أخضر؟

صوت (ينطلق فجأةً من بين الركاب): أحمر.

السائق: أرجوك، أرجوك ... بالترتيب ... بالترتيب ... سيجيء دورك ... متأكد يا حضرة الأفندي أنه أخضر؟

الأفندي: متأكد.

الوقَّاد: وأنت يا عم ... يا صاحب المَقْطَف ... مَقْطَف الحمص ... انظر هناك وقُل لنا.

الرجل: أنا يا ابني نظري ضعيف.

الوقَّاد: آه، لا مؤاخذة!

السائق: وأنتِ يا ست!

صوت: رُدِّي يا ست أم حنفي!

السائق: لا، لا ... الست أم فستان لَبَني مشجَّر.

المرأة: خدَّامتك.

السائق: اللون ... من فضلك ... هناك ... انظري!

المرأة: أخضر.

السائق: متأكدة يا ست؟
المرأة: يا ندامة! ... وأنا عميت؟ ... أخضر وشرفك ... كمثل عُود البقدونس.
الوقَّاد: وأنت يا أستاذ ... حضرتك؟
الرجل: أنا مُدرِّس محفوظات وخط عربي.
الوقَّاد: جميل ... تفضل انظر لون الإشارة.
المدرس: اللون ... أصفر.
الوقَّاد: أصفر؟
السائق: غير معقول!
الوقَّاد: لا يوجد أصفر يا أستاذ ... إما أحمر وإما أخضر.
المدرس: سبحان رب العزة ... أنا أراه أصفر ... وأنا حر يا أخي!
السائق: أنت متأكد أنه أصفر.
المدرس: متأكد جدًّا ... وأُصِرُّ كل الإصرار ... أنه أصفر ... أصفر ... أصفر ... كأنه الكركم!
الوقَّاد: أمرك.
السائق: وأنت يا ست يا شابة؟
امرأة: أنا؟
السائق: لا يا خالة! ... أنا قلت الشابة ... حضرتها المشغولة بطرقعة اللبانة بلسانها!
الشابة: أطرقع اللبانة على كيفي!
السائق: طبعًا ... طبعًا ... لا مؤاخذة ... أنا غلطان!
الشابة: العفو يا روحي!
السائق: إذا سمحتِ ... انظري هناك وقولي لنا اللون.
الشابة: أحمر ... في عين عدوك!
السائق: متأكدة أنه أحمر.
الشابة: عيب ... أغشك؟!
الوقَّاد: وأنت يا جدع هناك ... أبو جردل غازوزة! ... انظر إلى اللون ... وقُل لنا.
البائع: أحمر ... أحمر ... كوكاكولا ... أورانجو ... بيبس.
السائق: السؤال عن لون الإشارة هناك يا جدع انت ... لون الإشارة؟!
البائع: برضه أحمر!

السائق: متأكد أنه أحمر؟

البائع: وأنا، بلا قافية، حمار؟!

السائق: غيره ... أنت يا سيدنا الشيخ ... هناك!

صوت: أنا؟ ... أنا؟

السائق: لا، لا ... الشيخ السنِّي بيَّاع السبَح والمساويك والأوراد نعم، نعم ... حضرتك ... لون الإشارة من فضلك؟

الشيخ: خضراء.

الوقَّاد: أنت واثق أنها خضراء.

الشيخ: خضراء ولله الحمد من قبل ومن بعد!

الوقَّاد: غيره ... أنت يا معلم ... أنت لا، لا، لا ... جارك صاحب عدَّة النجارة.

النجار: أنا نجار سَوَاقي.

الوقَّاد: مفهوم.

النجار: وأصلح الكبابيس ومكنات الطحين.

الوقَّاد: مفهوم، مفهوم ... لكن ... انظر الإشارة هناك ... المقصود أنك تقول لنا لونها.

النجار: لونها أحمر.

السائق: أحمر؟! أنت متأكد؟

النجار: كله إلا مسألة النظر ... مضبوط عندي بالمِلِّي ... اطمئن يا حضرة ... أحمر يعني أحمر.

السائق: وآخرتها؟!

الوقَّاد: علينا بالدرجة الأولى.

السائق: أمامنا عربة الأكل.

الوقَّاد: تفضل!

السائق: من فضلكم ... تسمح يا سعادة البك ... طلب بسيط ... اللون هناك ... أيُّ لون تراه سعادتك؟

البك: أبيض.

السائق: سعادتك قلت أبيض؟!

البك: طبعًا أبيض ... لأننا طلبنا صنف سمك ... والسمك يُشرَب عليه نبيذ أبيض.

السائق: قصدنا الإشارة هناك في السيمافور ... لون الإشارة؟
البك: وما شأني أنا؟!
صوت (ناعم حريمي)**:** وهل هذا وقته؟
السائق: لا مؤاخذة ... هذا مجرد سؤال بسيط ... رأينا فقط أخذ رأي سعادتكم في لون النور.
البك: اللون أخضر.
السائق: أخضر؟ ... شكرًا.
المرأة: بل هو أحمر يا عزيزي ... انظر جيدًا.
البك: إنه أخضر يا عزيزتي شوشو ... انظري أنتِ جيدًا!
المرأة: أؤكد لك أنه أحمر.
البك: وأنا أُقسم لك أنه أخضر.
المرأة: وحياة عينيك أحمر.
البك: ورأس مامتك أخضر.
المرأة: أحمر.
البك: أخضر.
المرأة: أنا قلت أحمر.
البك: وأنا قلت أخضر.
المرأة: قصدك تعاندني والسلام؟!
البك: أبدًا والله ... قصدي أقول ما تراه عيني.
المرأة: تقصد أني عميت.
البك: أيخطر في بالك أني أقصد ذلك؟
المرأة: طبعًا ... أنت دائمًا هكذا ... تحلو لك معاندتي ... وتحب أن تقف ضدي على خط مستقيم!
البك: والله العظيم، لا أقصد.
المرأة: بل تقصد.
البك: يا ستي ... يا عزيزتي ... يا حبيبتي، افهميني.
المرأة: افهمني أنت!
البك: اللهم أخْزِك يا شيطان ... لكن الحق ليس علينا ... الحق على من يحلو لهم تعكير صفونا ... كنا أنا وأنت مبسوطَين في أمان الله ... فجاء مَن نكَّد علينا.

المرأة: حقًّا ... جاءوا يُنكِّدون علينا بدون مناسبة!
البك: تفضلوا من غير مطرود!
السائق: سنتصرَّف ... سنتصرَّف.
البك: بسرعة ... داهية تسمكم في قلة ذوقكم وطهيكم!
الوقَّاد: يا ساتر استر!
السائق: والنتيجة؟
الوقَّاد: النتيجة ... كما ترى ... زفت وقطران!
السائق: تظن أنه لا داعي للاستمرار.
الوقَّاد: أظن ... خصوصًا وما زالت أمامنا عربات كثيرة.
السائق: مِن رأيي أن نمرَّ عليها بسرعة ... نخلص ذمتنا.
الوقَّاد: نعم ... بسرعة ... على الماشي!
السائق: مِن فضلكم ... جميع ركاب العربات ... انظروا هناك ... هذه الإشارة ... هناك ... عمود الإشارات ... السيمافور ... فوقه نور ... ما لون هذا النور؟
أصوات: أحمر ... أحمر ... أحمر.
أصوات: أخضر ... أخضر ... أخضر.
أصوات: أحمر ... أحمر ... أحمر ... أحمر.
أصوات: أخضر ... أخضر ... أخضر ... أخضر.

(تظل الأصوات ترتفع مختلطةً ... ثم تأخذ حِدَّتها في الهبوط ... وارتفاعها في الانخفاض تدريجيًّا إلى أن تصير صَدًى بعيدًا ينتهي بالتلاشي.)

السيدة (تنتهي من التواليت وتُلقِي آخر نظرة على وجهها في مرآتها الصغيرة): وأخيرًا!
الآنسة (لا تزال مُشتغِلةً بالتريكو): أخيرًا ... لا شيء!
السيدة: هل سنمضي الليل هنا؟
الآنسة: مَن يدري؟
السيدة: الحق أن المكان هنا جميل ... وهذا القمر المكتمل.
الآنسة: لولا هذا البدر الطالع ... بكامل استدارته ... لبدا المكان مُوحِشًا.
السيدة: كل شيء حولنا مضيء ... كما لو كنا في الفجر.

الآنسة: نعم ... وهذه المزارع ... تحت السماء الصافية ... غسلتها عاصفة الأمس ... بعد الزوابع والأمطار تصفو السماء كالطبق الصيني بعد غسله.

السيدة (ناظرةً في مرآتها)**:** لو كان وجهي بهذا الجمال دائمًا! إنه ضوء القمر ولا شك.

الآنسة: حقًّا ... كل شيء هنا الآن جميل ... حتى نَقِيق الضفادع، وهذا الهدير الخافت الهامس لبخار القاطرة ... في الشتاء يحلو لي دائمًا الجلوس إلى جوار الدفَّاية وفوقها الغلَّاية ... أستمع إلى صوت الماء وهو يغلي ويبقبق ... كأنه يُناجيني بحديث خاص خافت.

السيدة: أنتِ تعيشين وحدكِ؟

الآنسة: نعم.

السيدة: ماذا تعملين؟

الآنسة: أعمل في محل أزياء ... المُرَتَّب حَسَن.

السيدة: يلزمك الزواج حقًّا.

الآنسة: وأنتِ ... ماذا تعملين؟

السيدة: أعمل؟!

(تضحك ضحكة غريبة.)

الآنسة: ما الذي أضحكك؟

السيدة: أنتِ عبيطة!

الآنسة (تتسمَّع)**:** ها هو ... يعود ... يعودان.

السيدة: آه، حقًّا.

(صوت الشخشيخة يُسمَع بالفعل خافتًا ثم يتَّضح تدريجيًّا.)

الآنسة: أخشى أن يكون سلوكنا ...

السيدة: سلوكنا؟! ماذا في سلوكنا؟

الآنسة: أن يكونا فَهِمَا شيئًا.

السيدة: فهِما ماذا؟

الآنسة: لست أدري بالضبط ... لكن ...

السيدة: نحن غير مسئولات عن فَهم الناس لنا ... ومع ذلك ما فعلنا؟
الآنسة: أهذا رأيك؟
السيدة: طبعًا ... لماذا تفكِّرين هذا التفكير؟
الآنسة: أخشى أن ...
السيدة: اسمعي ... بصراحة ... هذه فرصتك ... لا تُضيِّعيها ... هذا الموسيقي ينفعك ... أنا أعرف رجال الليل والكباريهات ... إنهم يحبون البيت الهادئ المُنَظَّم ... رجل الفوضى يشتاق إلى النظام ... ورجل النظام يشتاق إلى الفوضى.
الآنسة: وأنتِ؟
السيدة: إنها فرصتي أيضًا ... لكن على طريقتي.
الآنسة: صاحب المصانع هذا ... رجل صعب!
السيدة: عندي مفتاحه.
الآنسة: هس! ... ها هم.

(تُسمَع الشخشيخة واضحة جدًّا، ويظهر المالي وخلفه الموسيقي.)

الموسيقي (للمالي)**:** وما هي الطريقة التي تشتري بها القطار؟
المالي (وهو يُجري عملية حسابية في دفتر صغير بيده)**:** أولًا هذا لا يُسَمَّى بقطار ... هذا حديد خردة!
الموسيقي: ولكنه لا يزال يعمل.
المالي (هازئًا)**:** يعمل؟!
الموسيقي: حقًّا ... هو يترنَّح ... جعل الركاب كالسكارى بغير خمر.
السيدة (ضاحكة)**:** وهذا عز المطلوب.
الموسيقي: إنه يعجبك إذن يا سيدتي.
السيدة: ليس القطار ... بل السُّكْر بغير خمر ... خصوصًا في ضوء القمر.
الموسيقي: فعلًا ... ضوء القمر جميل ... ومفيد أيضًا؛ لأنه جعل الآنسة تُواصِل شغل الإبرة.
السيدة (مُشيرةً إلى المالي)**:** وجعل حضرته يواصل حساباته.
الآنسة: هذا لا يمنع أني مستمتعة بجمال القمر.
الموسيقي: دون أن تُضيِّعي وقتك سُدًى ... يدك البارعة تَنسُج باستمرار.

الآنسة: مجرَّد عادة ... لا بد أن أصنع شيئًا.
الموسيقي: شيئًا نافعًا.
السيدة: يظهر أنك مُعجَب بالأشياء النافعة.
الموسيقي: جدًّا.
السيدة: تُعجِبك إذن الزوجة من هذا الطراز؟
الموسيقي: نعم ... ولكن خطيبتي ...
السيدة: خطيبتك؟
الموسيقي: إنها راقصة معي في الكباريه.
السيدة: عملكما إذن واحد ... ومواعيدكما واحدة.
الموسيقي: وهنا المشكلة.
السيدة: حقًّا مشكلة.
الموسيقي: تصوَّري أننا نسهر معًا ... وننام معًا ... ونترك البيت معًا ... أما مَن الذي سيقوم بتنظيم شئوننا ومنزلنا فالله أعلم ... لكن المهم على كل حال هو أن أتزوَّج وأُنجِب أولادًا بأسرع وقت.
السيدة: كانت هي إذن أقرب وأسرع مَن عثرتَ عليه؟
الموسيقي: بالضبط.

(السائق والوقَّاد يظهران.)

السائق: أما زلتم هنا منتظرين؟
المالي: ألم تَقُل لنا احرسوا القطار؟!
الموسيقي: وقد حرسناه.
المالي: بالذمة والأمانة.
الموسيقي (يشير إلى المالي)**:** وحضرته تكرَّم بإحصاء كل مسمار فيه.
المالي: وأنتم ماذا صنعتم؟
الوقَّاد: لا شيء ... النتيجة صفر.
المالي: صفر؟!
السائق: لم نتقدَّم ولم نتأخَّر.
السيدة: حقًّا هذا عجيب!

الآنسة: فعلًا عجيب!

السائق: هذا شيء مُحيِّر ... أيمكن أن يُصَاب الناس كلهم هكذا بالعمى في وقت واحد؟!

الوقَّاد: نصف القطار فقط.

السائق: نعم، نصف القطار أُصِيب بعمى الألوان!

الموسيقي: أيُّ نصف؟

السيدة: حقًّا ... أيُّ نصف؟!

الوقَّاد: النصف الذي يقول الأخضر طبعًا.

السائق: ولماذا لا يكون هو النصف الذي يقول الأحمر؟

المالي: لا يهمُّ أي نصف!

السائق: هذا صحيح ... لم يَعُد يهمُّ أي نصف ... المهم الآن أننا لا يمكن أن نستمر في الوقوف ... هذا خطر ... خطر جدًّا ... قطار الإكسبريس خلفنا ... يجب أن نتصرَّف ... نتصرَّف بسرعة.

المالي: عندي فكرة.

السائق: تفضل ... أرجوك!

المالي: تنفيذ الفكرة يحتاج إلى قوة ... قوة تعاون تام.

السائق: ونحن مستعدُّون.

الجميع: نعم، كلنا.

السائق: ما هي الفكرة؟

المالي: الفكرة بسيطة ... هي بالاختصار أن يتكاتف كل ركاب القطار على إخراجه عن الخط الحديدي والإلقاء به بعيدًا.

الجميع: الإلقاء بعيدًا؟!

المالي: بعيدًا عن طريق الإكسبريس.

السائق: ما هذا الذي تقول يا حضرة؟ ... نُلقِي بهذا القطار؟!

المالي: بعيدًا عن طريق الخطر.

الوقَّاد: أَمَّا فكرة!

السائق: نُلقِي بالقطار؟!

المالي: وأنا مستعدٌّ أن أشتريه.

السائق: تشتريه؟

المالي: بالسعر المناسب ... حديد خردة طبعًا.

السائق: يا ناس! ... أنا في عرضكم ... يريد أن نقلب له القطار ليشتريه!

الوقَّاد: حديد خردة!

المالي: أنتم وشأنكم ... قلتُ لكم عن أحسن طريقة لتجنُّب تصادُم الإكسبريس.

السائق: الطريقة الوحيدة هي أن نسير.

الوقَّاد: برغم السكة المقفولة؟

السائق: إنها مفتوحة.

الوقَّاد: هذا هو موضوع الخلاف ... ولا يزال الخلاف قائمًا، ولم ينتهِ إلى شيء.

الآنسة: اسمحوا لي بكلمة.

السائق: تفضَّلِي!

الآنسة: كشك الإشارات قريب من هنا؟!

السائق: على بُعد كيلومتر.

الآنسة: هل ممكن أن يذهب أحد إلى هناك يسأل ويتأكد؟

الموسيقي: فكرة مدهشة!

الوقَّاد: هذا يحتاج إلى مسيرة ربع ساعة.

السائق: مع الإسراع ربما وصلنا في عشر دقائق ... نُجرِّب فلنجرِّب! ... هناك بالطبع سنجد عامل الإشارات ... وهو يُوضِّح لنا حقيقة الأمر.

الوقَّاد: ومَن يذهب؟

السائق: أنا طبعًا.

الوقَّاد: وأنا معك.

السائق: ألا تثق بي؟

الوقَّاد: ليطمئنَّ قلبي.

السائق: ولكنك لا تستطيع الإسراع بهذه الساق الخشبية.

الوقَّاد: عند الضرورة أستطيع القفز بها وأُسابِق الغزال.

السائق: هَلُمَّ بنا إذن.

(السائق يسحب الوقَّاد ويُسرِعان في اتجاه السيمافور.)

الموسيقي (للآنسة): وأفكارك أيضًا مدهشة!
الآنسة: ليس لي أفكار ... أنا إنسانة بسيطة.
الموسيقي: ومُتواضِعة!
السيدة: اسمعوا يا جماعة! ... عندي اقتراح.
الجميع: ما هو؟
السيدة: نرقص.
الجميع: نرقص؟!
السيدة: نعم ... ننتهز فرصة ضوء القمر الجميل ونرقص.
الموسيقي: أنا موافق.
السيدة: أليست فكرة مُدهِشة؟ (للمالي) ما رأيك؟
المالي: أنا لا أعرف الرقص.
السيدة: أُعلِّمك.
الموسيقي (للآنسة): وأنتِ؟ ما رأيكِ؟
الآنسة: لم يسبق لي أن رقصت.
الموسيقي: هذا سهل ... أُعلِّمك.
السيدة: اتفقنا إذن ... هيَّا بنا.
الموسيقي (يهزُّ الشخشيخة إيذانًا بالرقص): هيَّا.
المالي: انتظر من فضلك ... أهذا وقت مناسب للرقص؟ إن هناك أشياء أهمَّ من ذلك.
الموسيقي: ما هي؟ ما هي الأشياء الأهم من ذلك في نظرك؟ ... شراء القطار؟ ... طلاق زوجتك؟!
المالي: أتعرف لماذا أريد أن أُطلِّق زوجتي؟
الموسيقي: لا يهمُّني أن أعرف.
المالي: بل يجب أن تعرف ... وأنت بالذات.
الموسيقي: أنا بالذات؟
المالي: نعم، أنت بالذات ... وأقولها لك بصراحة ... أريد أن أُطلِّق زوجتي لأمنعها من أن تأتي لي بولد مثلك.
الموسيقي: مثلي؟!
المالي: نعم مثلك ... لأن هذا هو الذي سيحصل بالضبط ... أنا واثق من ذلك ... إذا جاءني ولد فسوف يكون كل عمله في الحياة أن يلعب هو بالشخشيخة ... لا أن يصنعها.

الموسيقي: وما الضرر؟

المالي: أنت لا تحسُّ الضرر ... لا تشعر بالكارثة أن يأتي ولد يُبدِّد المال الذي صنعتُه بيدي هذه.

الموسيقي: هذا المال سيُبدَّد على كل حال.

المالي: أنت تقول ذلك لأنك بدَّدتَ حياتك ... تهزُّ يدك في الهواء! ... كل أملك الآن أن تتزوَّج بسرعة وتأتي بأولاد بسرعة ... أتعرف لماذا؟ أنا أعرف ... لأنك تعتقد في أعماق نفسك أن ولدًا لك على الأقل سيصنع هو الشخشيخة التي لبثتَ أنت طول حياتك تلعب بها.

السيدة: كل واحد في الدنيا له لُعبته ... هو يُشخشِخ بالشخشيخة وأنت تُشخشِخ بالذهب.

المالي: أتُسمِّين عملي لُعبةً؟!

السيدة: لأُدخِل السرور على قلبك ... هيَّا بنا نرقص ... هيَّا ... تانجو في ضوء القمر ... تانجو.

(السيدة تُخاصِر المالي بسرعة وهو يتردَّد مُحاوِلًا التملُّص.)

المالي: لكن ...

السيدة: لا تقُل لكن ... قوامك صالح للرقص بشكل عجيب.

المالي: حقًّا؟!

السيدة: ألا تُصدِّق؟ ... عندما أقول لك أنا ذلك فكُن على ثقة.

المالي: كنت أظنُّ أني ...

السيدة: دعك من الظنون.

المالي: إذن أنا في نظرك ...

السيدة: مُدهِش.

المالي: تَأكلين بعقلي حلاوة.

السيدة: بقلاوة.

المالي: وتعترفين؟!

السيدة: إني ألعب على المكشوف.

المالي: وأنا أُفضِّل ذلك.

السيدة: أعرف.

المالي (يستسلم)**:** الرقص لذيذ.

السيدة: نحن في البداية.

الموسيقي (للآنسة)**:** ونحن؟ ... ألا نفعل مثلهم؟

الآنسة: إذا كان هذا يسرُّك ... ولكن ...

الموسيقي: أراكِ غير مُتحمِّسة!

الآنسة: ملاحظة الراقصين أكثر متعةً عندي ... وأنت؟

الموسيقي: أنا مثلك.

الآنسة: حقًّا؟!

الموسيقي: أنا نفسي قلَّما أرقص.

الآنسة: أنت الذي تجعل الآخرين يرقصون.

الموسيقي: بالضبط.

الآنسة: وهذا يُسعِدك؟

الموسيقي: جدًّا.

الآنسة: حقًّا ... عندما ترى الناس يرقصون على نغمة يدك ... لا شك أنك تشعر بمتعة.

الموسيقي: فعلًا.

الآنسة: هذا هو شعوري الآن وأنا ألاحظك تعمل ... بهذا الابتهاج.

الموسيقي: نظراتك هذه المُشجِّعة تملؤني حماسًا للعمل ... إذا كان هذا يُسمَّى عملًا! (يغمز بعينه مُشِيرًا إلى المالي.)

الآنسة: ولم لا؟ ... أَلأنَّه مُحبَّب إلى نفسك ... وإلى الناس؟!

الموسيقي: كلامك مثل المرهم.

المالي (وهو يُراقِص السيدة)**:** إني أدوس على قدمك!

السيدة: هذا أيضًا داخل في الحساب.

المالي: لكني بالطبع لم أقصد.

السيدة: المهم ألَّا تدوس على قلبي.

المالي: وهل أستطيع؟!

السيدة: لا تُحاوِل.

المالي: قلبك في مكان مرتفع.
السيدة: طبعًا.
المالي: حتى قدمُك ليست هي التي أدوسها.
السيدة: الحذاء، وهو زهيد الثمن.
المالي: كم ثمنه؟
السيدة: ثمن حذائي؟ ... أم ثمن قلبي؟
المالي: ثمن قلبك؟
السيدة: قلبي أبيض.
المالي: مثل شيك على بياض!
السيدة: ها أنت استطعت أن ترى بياض قلبي!
المالي: إني ابن سوق.
السيدة: لقد صُنِع أحدنا للآخَر.
المالي: كما يُصنَع المفتاح لقُفله.
السيدة: ومن منَّا المفتاح؟
المالي: اختاري أنت!
السيدة: لقد اخترتُ فعلًا!
الآنسة (صائحة)**:** أتسمعون؟!
الجميع: ماذا؟!
الآنسة: هناك ... في العربات الأخرى.

(تُسمَع أصواتُ جَلَبةٍ وصياحٍ وضجيجٍ وغناءٍ ورقصٍ في العربات الأخرى ... كل عربة تغنِّي لونًا ... عربة تغنِّي «على بلد المحبوب ودِّيني» ... وأخرى تغنِّي «بلدي يا بلدي وأنا بدي أروَّح بلدي» ... وثالثة تُصفِّق بالأيدي على الواحدة كما لو كان هناك مَن تحزَّموا ورقصوا، كما تُسمَع نغمات بعيدة صادرة عن راديو ترانسستور لرقصة التويست ... وكلُّ هذا يختلط ويشتدُّ في الاختلاط إلى أن يصير نوعًا من الهوس الجنوني.)

الموسيقي (يهزُّ الشخشيخة بقوة)**:** برافو!
السيدة: القطار كلُّه يغنِّي ويرقص.

المالي: أهذا غناء ورقص؟ هذا جنون وهوس!
الآنسة: وهل يستطيعون الساعةَ شيئًا آخَر؟!

(صوت صفير من بعيد.)

المالي (همسًا للسيدة)**:** هل سمعتِ صفيرًا؟
السيدة: صفير؟
المالي: هس! ... تكلَّمي بصوت خافت!
السيدة: لماذا؟
المالي (يهمس)**:** أظنُّه صفير الإكسبريس ... فلنبتعد أنا وأنتِ قليلًا.
السيدة: الإكسبريس؟
المالي: عمَّا قليل يأتي ويجرف هذا القطار العتيق ... إنها الصفقة الكبرى ... سأشتري هذا الحديد جميعه بأقل من ربع الثمن.
السيدة: يا للكارثة! ... وهؤلاء الناس؟! هؤلاء الركاب؟! ... يجب أن نُنبِّههم.
المالي: أنتِ مجنونة؟ إياكِ أن تفعلي ... أنتِ لا تعرفين الجماهير ساعة الكارثة ... إنهم ينقلبون إلى وحوش.
السيدة: لكن ...
المالي: سنكون نحن أول الضحايا ... اسكتي ... اسكتي ... أرجوكِ! ... لا شأن لنا بشيء.
السيدة: إنهم يغنُّون ويرقصون ولا يدرون بما سيقع.
المالي: هذا خير لهم!
الآنسة (تتسمَّع)**:** أتسمعون؟!
المالي: ماذا؟
الآنسة: كأني به صفير قطار.
الموسيقي (يتسمَّع)**:** حقًّا.
المالي: لا، لا ... هذا صفير وابور طحين ... في هذه النواحي أكثر مكنات الطحين ... وهي تستعمل أحيانًا صفَّارات مثل صفَّارة القطار.
الموسيقي (يستأنف هزَّ الشخشيخة)**:** هذا صحيح.
المالي: إلى الرقص ... إلى الرقص ... إلى الرقص.

(السيدة بلا حراك.)

المالي (وهو يستأنف مراقصتها)**:** ما هذا الوجوم؟
السيدة: لا ... لا شيء.
المالي: ارقصي ... ارقصي.

(يُراقِصها بشدة وقوة وهي كالمُنوَّمة بينما يعلو الصخب ويشتدُّ الضجيج وترتفع أصوات الغناء والرقص مِن كل نوع، وتختلط في دوَّامةٍ مِن ذلك الهوس والجنون في جميع العربات ... وعندئذٍ يظهر السائق وخلفه الوقَّاد عائدَين فيَخِفُّ الحاضرون لاستقبالهما.)

الجميع (صائحين)**:** خيرًا؟!
الموسيقي (وقد كفَّ عن الهز)**:** ماذا وجدتم؟!
الآنسة: بماذا جئتم؟
المالي: وأخيرًا؟
السيدة: ما هي النتيجة؟
السائق: لا شيء.
الجميع (في دهشة)**:** لا شيء؟!
الوقَّاد: نعم، لا شيء.
الجميع: ماذا تقولون؟!
السائق: لا يوجد شيء.
الجميع: لا يوجد شيء هناك؟!
الوقَّاد: لا ... لا يوجد شيء هناك على الإطلاق.
المالي: والكشك؟
السائق: لا يوجد كشك.
الموسيقي: والسيمافور؟
الوقَّاد: لا يوجد سيمافور.
الآنسة: والإشارات؟

السائق: لا توجد إشارات.
السيدة: والعامل؟
الوقَّاد: لم نجد أي عامل ولا مُوظَّف.
الجميع (في دهشة)**:** ما هذا الكلام؟!
السائق: هذا ما وجدناه.
الوقَّاد: هذه هي الحقيقة.
السائق: وجدنا بالطبع الكشك، ولكنَّه ...
الوقَّاد: ولكنَّه مهجور ... ونوافذه مُهشَّمة.
السائق: عاصفة الأمس حطمته ... إنه أنقاض ... مُجرَّد أنقاض.
الجميع: مُجرَّد أنقاض!
الوقَّاد: والسيمافور كذلك.
السائق: جرفته العاصفة ... ألقت به على الأرض ... وهشَّمت مصابيحه.
الجميع: هشَّمت مصابيحه؟ إذن ... إذن.
الآنسة: إذن لم يكن هناك إشارات؟
السائق: ما دام السيمافور لا يعمل.
الموسيقي: لم تكن هناك ألوان إذن؟
الوقَّاد: ما دامت المصابيح مُهشَّمة.
السيدة: وكيف رأينا إذن اللون الأحمر؟
الموسيقي: الأخضر؟
المالي: الأحمر؟
الآنسة: الأخضر؟
السائق: اسألوا أنفسكم!
الجميع (للسائق)**:** وأنت؟
السائق: أنا أيضًا أسأل نفسي من ساعتها.
الجميع (للوقَّاد)**:** وأنت؟
الوقَّاد: مثلكم جميعًا.
المالي: نحن جميعًا قد رأينا ألوانًا ... فلتكن حمراء أو خضراء ... ولكنها ألوان على أي حال ... قد رأيناها بأعيننا ... هل هناك شك في ذلك؟!

الجميع: مطلقًا ... مطلقًا.
السيدة: كيف رأينا تلك الألوان إذن؟
الموسيقي: هذا هو الشيء المُحيِّر.
الآنسة: حقًّا.
المالي: والنتيجة الآن؟
السائق: النتيجة أنه ما دامت لا توجد إشارات مُعيَّنة، فمعنى هذا أن السكة مفتوحة.
الوقَّاد: ولماذا لا نقول العكس؟! ... إنه ما دامت لا توجد إشارات تفيد الأمان فالسكة مقفولة.
السائق: اسمع ... أنا لم أَعُد مستعدًّا لاستئناف المناقشات من جديد ... ما دمنا تحقَّقنا من عدم وجود إشارات أمامنا فالطريق إذن حرٌّ ... ويجب أن نسير.
الوقَّاد: ومَن أدرانا؟! ... ربَّما العاصفة قد سدَّت الطريق أمامنا.
السائق: لا تَنْسَ أن الإكسبريس قادم من خلفنا.
المالي: أنا من رأيي الوقوف والانتظار.
السائق: الوقوف والانتظار حتى يدهمنا الإكسبريس؟!
السيدة (غير مُتمالِكة)**:** لا ... لا ... لا.
المالي (للسيدة هامسًا)**:** ماذا دهاكِ؟
السائق: يجب أن نتحرَّك في الحال.
الوقَّاد: في تحرُّكنا مجازفة.
السائق: وفي وقوفنا أيضًا مجازفة.
المالي: لكن السير ...
الموسيقي: لكن الوقوف ...

(تختلط كلمات السير والوقوف في أفواه الجميع اختلاطًا مزعجًا، تُقابِله عن بُعدٍ أصوات الغناء والرقص في العربات، وينتج عن ذلك كله صخب جنوني.)

السائق (فجأةً يصرخ ويُصفِّر ويُحرِّك ذراعَيه كالقاطرة السائرة)**:** تريك تراك تريك تراك تريك تراك تريك تريك تريك.

الجميع (ملتفتين إليه)**:** انظروا! انظروا! ماذا يفعل؟

(السائق يقفز إلى القاطرة ويُطلِق صفَّارتها طويلًا إيذانًا بالسير ... وعندئذٍ يهرع الجميع بحركة غريزية يتسلَّقون القطار.)

(ستار)

هنـــداوي